المقاومة الأخلاقية

في أدبيات أسرة "أهل آدب"

أدي ولد آدب

سلسلة التراث الكتني البوسيفي

أدي ولد آدب



(أدبيات أهل آدب) - (2)

هذا الكتاب

الأخلاق مبحث فلسفي، موضوعه منظومة القيم التي يعرفها مجتمع ما، وذلك من خلال دراسة ثقافته «العالمة»، والبحث في الأخلاق يقتضي دراسة منظومة القيم التي أنتجتها أدبيا أو فكريا مجموعة بشرية، وتطور هذه المنظومة عبر تاريخ تلك المجموعة. نجد هذه الرؤية مجسدة في هذا الكتاب، وهذا ما يمنحه طابعه العلمي. فالكتاب يبحث في مصادر لا زالت بكرا ومنطقة مجهولة لدى الدارسين، وذلك وفق منهج دقيق، ورؤية جديدة، تتجاوز المقاربات المألوفة.

المنهج استقصائي بامتياز، والمقاربة بحث في «المقاومة الأخلاقية» لأسرة «آدب» من خلال إنتاجها الأدبي والشعري عبر أجيال مختلفة. أما الجدة في البحث فتتمثل في نقل مفهوم المقاومة من الآخر إلى أسوار الذات؛ «مقاومة الجهل والجبن والشح والدجل، وتثبيت قيم الفتوة والمروءة والصبر والتخلية والتحلية... وغير ذلك مما يندرج في إطار «أدب النفس».

والبحث العلمي في جوهره بناء، وهو ما نلمسه أيضا في هذا الكتاب، بحيث نجده يسعى إلى بناء الشخصية الجماعية «للنكتني» و«التفني» من خلال نظام أخلاقها كما هو مبثوث في إنتاجها «العالم».

غير أن أهم ما يميز هذا الكتاب هو أن البحث في أخلاق أسرة «آدب» تحكمه مرجعية أخلاقية، فإذا كانت الذات تتحول إلى موضوع باعتبار الكاتب واحدا من أحفاد هذه الأسرة؛ فالقارئ لا يجد في ثنايا البحث ما يحيل على إقليمية ضيقة، وإنما يشعر بأن البحث هو عملية إحياء، الدافع وراءها الأخلاق نفسها، وكأن مسؤولية البحث هذه تظل كاهل الكاتب، في انتظار باحث دارس ينطلق من البعد الأخلاقي للآية الكريمة: ﴿من أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا﴾.

الناشر



أدي ولد آدب

ISBN 978-9954-618-85-1

مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال

483/4 الوحدة 4 الداوديات - مراكش - المغرب - 59 73 30 24 05

المقاومة الأخلاقية
في أدَبِيَّات أسْرَةَ "أهل آدب"

تم نشر هذا الكتاب في إطار سلسلة
– التراث الكنتي البوسيفي –
(أدبيات أهل آدب) – (2)

- **الكتاب:**
المقاومة الأخلاقية
في أدبيات أسرة "أهل آدب"
- **المؤلف:**
أدي ولد آدب
- **عدد الصفحات:** 112 صفحة
- **مقاس:** 16×24 سنتم
- **الطبعة الأولى:** مراكش 1442هـ/ 2020م
- **الكلمات المفاتيح:** التراث الكنتي، أدبيات أهل آدب، تراجم، نصوص شعرية
- **الحقل المعرفي:** الآداب/ / الأدب الموريتاني/ تراجم
- **ديوي:** 800

رقم الإيداع القانوني: 2020 MO 4423
الرقم الدولي: 1 – 85 – 618 – 9954 – 978

جميع الحقوق محفوظة © 2020– المغرب

الناشر:

مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال،
4/ 483 الوحدة الرابعة، الداوديات – مراكش – المغرب
(212) 05 24 30 73 59
www.afaqedit.com
Email: afaqedit@gmail.com

تصميم الغلاف: مؤسسة آفاق – مراكش – المغرب
الطباعة: المطبعة والوراقة الوطنية – مراكش – المغرب

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال.

سلسلة التراث الكنتي البوسيفي

(أدبيات أهل آدب)

(2)

المقاومة الأخلاقية

في أدَبِيَّات أسْرَة "أهل آدب"

أدي ولد آدب

إهداء

إلى أهل آدب

شهداء "المقاومة الأخلاقية"

أولئـك قـوْمٌ كلَّهـم- فِي نَدِيِّـه- أمـــيرٌ، وفي محْرَابِـــه مُتَعَبِّـــدُ
همُ مَعْدنُ العِزِّ الصريحِ، إذا انْتَمَوْا وبيْتُ المَعَـالِي، والمَعـانِي، المُصَـمَّدُ
لِبَانُ التُّقَى، والمكْرماتِ قد ارْضِعُوا وسادوا جميـعَ العـالمينَ، وسُـوِّدُوا
ومـــا مِـــنْهمُ إلا جَـــوَادٌ مُـــبَرِّزٌ لدى حَلَبَاتِ المَجْدِ، نَـدْبٌ، مُمَجَّـدُ
فهمْ كنُجوم الليل؛ ضوْءً، وخِلْقَـةً إذا سَـــيِّدٌ ولَّى يُخَلِّـــفُ سَـــيِّدُ

اقتباسا من الشاعر العلوي:
محمد عبد الله بن عبيد الرحمن
حين رثى الشيخ أحمد بن آدب

1944

الفهرست

إهداء 7

أولا: مدخل تأسيسي 11

ثانيا: التَّكنْتِي والتَّفَتِّي 17

ثالثا: أولاد بوسيف: خصوص الخصوص 21

رابعا: أكان: "ربْع عَزَّة البوسيفيين، وعزتهم 25

1- أحمد بن المختار بن أحمد بن الطالب أعمر 26

2- الشاعر: أحمد بوه بن محمد بن مْحمد بن الطالب أعمر 28

3- أحمد بن أحمد اشنان 29

4- مْحمد "ويقي" ابن سيد المين بن أحمد بن الطالب أعمر .. 30

خامسا: وطن البوسيفيين: منطقة الجذب بين حضرتين 33

سادسا: مشيخة أهل آدب: جدل الوهب والكسب 49

سابعا: أهل آدب: جدلية النسب والأدب 61

ثامنا: تجليات المقاومة الأخلاقية 71

أ- مقاومة الذات: صراع الإنسان والشيطان 71

ب- جدل الغضب والأدب 78

ج- البطولة الداخلية والخارجية 85

د- مقاومة الجهل والجبن: جدل الكتاب والركاب 87

ه- مقاومة الشح: قتل البخل بسيف البذل 93

و- مقاومة زهرة الدنيا- جدل السلوى والتقوى 99

ز- مُقاوَمَة الدَّجَل: دفاع الابتداع 102

تاسعا: الخاتمة 105

أولا

مدخل تأسيسي

"المُقاوَمَة" مُتلازمةٌ فطْريةٌ لكلِّ كائنٍ حيٍّ وَجَدَ نفْسَه في خِضَمِّ هذه الدنيا؛ حيث يُولدُ مُسْتشْعِرا ضعْفَه الوُجوديّ، ونِسْبيةَ الحياة من حوْلِه، واسْتحالةَ الخُلودِ لغيْر الخالق، فيبدأ في مُواجَهة عواملِ الفَنَاءِ الحتْمِيّ المُتَرَبِّصَةِ به من **الداخل** و**الخارج**، لتأسيسِ **خُلودِه النِّسْبِيّ**، چ ب ب ب پ پ چ[1]؛ ومنْ هُنا تأخذُ مُقاوَمَتُه طابعا مُزْدَوجا، بيْنَ **الذاتِيِّ** الداخليِّ، و**الغيْرِيّ** الخارجيّ، لا سيما بالنسبة للإنسان، الذي خُلِقَ فِي أحْسَنِ تَقْوِيمٍ مُتَنازَعا بيْن قبْضةٍ من طِينٍ، تشدُّه إلى الأسْفلِ، تُخْلِدُ به إلى الأرض، وبيْنَ نفْحةٍ من روحٍ، تسْمُو به إلى مَصْدره العُلْوِيّ، ليَكُونَ تردُّدُه بيْن هذيْن القطبيْن هو مَجالَ اخْتبارِه وابْتلائه، في جَدَارَتِه بالخِلَافةِ في الأرْض: هلْ ينجحُ.. أمْ يفشلُ؟ هل يفضُلُ.. أمْ يرذلُ؟ هل يسْمو.. أمْ يسفُلُ؟.

ومن هنا تتأطَّرُ صِفَةُ **"الأخْلاقية"**، التي وَسَمْتُ بها المفْهومَ الشاملَ لـ**«المُقاوَمَة»**، واخْترتُها زاويةً للمُقارَبَة، حيث يبْدو تكريسُ هذا المَفهوم – **لمُقاوَمَة العَدُوِّ الخارجيّ**– اخْتزالا وتسْطيحا، دَرَجَ عليْه الناسُ، حتَّى أصْبَحَ مُبْتَذَلًا، لكثْرَةِ ما خاضتْ في لُجَّتِه الأقلامُ.. وأنا – بطبْعِي– أكرهُ مَطروقاتِ المَواضيعِ، ومَألوفاتِ المُقارَبَات.. لأنَّ اتِّبَاعَها مُنَافٍ للإبداع، إذْ ليس إلا تحصيلا لحاصل، وتكْرارا بدُون طائل.. فبَدَلا من رصْدِ وقائعِ وتَجَلِّياتِ مُقاومَة العَدُوِّ الخارجيّ، بالمُتاحِ منَ الأسْلِحَةِ العاديةِ.. ينْبَغِي أنْ نُسلِّطَ الضوْءَ على الوجْه الآخَرِ لهذه العُمْلَةِ، فنَتَرَصَّد

[1]– **قرآن كريم**، سورة الشعراء، الآية: 84.

تجَلِّيات **البُعْد الداخليّ «للمُقاوَمَة الأخْلاقيـة»**، التـي ينْبغـي أنْ تكـونَ ذاتيـةً في البِداية، لتنْطلـقَ- بنجـاحٍ- مـنَ الأنَـا إلى الآخَـر.. بأسْـلحةٍ مُغـايِرَةٍ، وبأهْـدافٍ مُخْتَلِفةٍ.. اسْتلهامًا للتوْجِيهِ النَّبَوِيِّ بنقْلِ المَعْرَكَـةِ -مَبْـدئِيا- إلى الـداخل.. داخـل أسْوار الذات الإنسانية؛ فـ«**أعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ** التِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ»[1]، وعِنْدَما رَأى الناسَ - منْ حوْله- مُنْبَهِرينَ بالقُوَّةِ البَدَنِيةِ لرجُلٍ عمْلاقٍ؛ لا يَقـومُ لـه أحَـدٌ إلا صَرَعَـــــــــــــــهُ، شـــــــــــــــاءَ

-عليْه الصلاةُ والسلامُ- أنْ يَصْرِفَ ذِهْنِيةَ الجُمْهورِ عن تمْجيدِ **القوةِ البَدَنِيةِ** المادِّيةِ المُوَجَّهَة إلى الآخر، نحْوَ **القوة الرُّوحيـةِ** المُوَجَّهَـة إلى الـذات.. فزَلْـزَلَ قنَاعـاتِهم السائدةَ، نازعًا معْنَى القوة العَضَلِيةِ الخارقة من كلمتـيْ **"الشَّـدِيد= الصُّـرَعَة"**، اللتيْن عبَّأتْهُما بها مُواضَعاتُ اللغة العربية الجاهِليـة، ليشْـحَنَهُما -بعْـدَ تفْـريغِهُما- بمَعْنَى القوة الروحية الداخلية، ففاجَأهم بقوْلِه النافِي: «ليس الشَّدِيدُ بِالصُّـرَعَةِ»، وقبْلَ أنْ يفيقوا من هوْلِ الصدْمةِ اللغوية، وكلُّهم يتساءَلُ -في داخِله- مُسْتعْرِضا مُعْجَمَه العربيّ: بَادَرَهُمْ باسْتِدرَاكِ الحُكْمِ المُذْهِلِ؛ مُكَمِّلا حديثَه: «لكـن **الشـديدُ** مَنْ **يَمْلِكُ نَفْسَهُ عنْدَ الغَضَب**»[2]، مُؤسِّسا بذلك **لمَفْهومٍ روحـيٍّ للقـوة**، في إطـارِ **ثَوْرَتِه الأخْلاقيةِ** الجديدةِ علَى المَفاهيم الخاطئة، حيث ينطلقُ "الجِهَادُ الأكْبَرُ"[3] من مُحَارَبَةِ نَوَازِعِ الغرائز الحَيَوَانِية في النفْس الإنسانية، لتتخَفَّفَ من ثقلِ **كُتْلَـةِ الطـينِ** الجَسَدِيةِ المُثَبِّطَةِ، حتّى ترْتقِي فِي **"مَدَارِجِ السالِكِينَ"**، إلى **"مَرَاقِي السُّعُودِ"**، عـبْرَ مَحَطَّاتِ الأشْوَاقِ الرُّوحِية العُلْيَا، وهذا ما فهِمَه أبْطال **"المُقاوَمَة الأخْلاقيـة"** مـن

---

[1]- الخرائطي: **اعتلال القلوب**، تح: حمدي الدمرداش، الناشر: نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الرياض، ط2، 2000م، ص 26.

[2]- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، ج12، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط1، 2001م، ص 153.

[3]- أبو بكر البيهقي: **كتاب الزهد الكبير**، تح: عامر أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط3، 1996م، ص 165.

المُتَصَوِّفِينَ الصالحينَ، في عمَلِهِمْ لتصْفِية الأرواح؛ فعبَّرُوا عنْه بمصطلحيِ **"التخْلِية"** من الرَّذائِلِ، و**"التَّحْلِية"** بالفضائل.[1]

ونظرا لعلاقة اسم **"أهل آدب"**-ولو جرسيا- **بالأدبين: أدب النفس، وأدب الدرس**، أحببت أن أحفر قليلا في العلاقة بين البعد الروحي/ **الأخلاقي** لهذه **العائلة**، والشذرات الباقية من **أدبياتها**، لتأسيس جسر واصل بين الاسم والمسمى، وبين الروح والبوْح، وبين الشخوص والنصوص، لا سيما أن هذه المسؤولية، قد تَعَيَّنَتْ عليَّ شخْصيا، بشكْل لم يَعُدْ قابلا للتغاضي، ولا للتسْويف، نظرا للتقدم في العُمر، وتَخَطُّفِ الموت لأشقائي الذين كان يمكن أنْ يُساهِموا معي في هذا المشروع، الذي كنا جميعا نسْعى - منذ نُعُومة أظافرنا- لجمْع شَتاتِه، وإنْقاذ بعْض جُذاذاته، وهكذا وجدتُ نفْسي دارسا، وموضوعا في الوقت نفسه، عالقا في قبضة حَرَجٍ مُزْدَوج، حَرَج اجتماعي؛ لأني أكتبُ عن أسْرتي، وحَرَجٍ أكاديمي لأني أكتبُ عن موضوع لا تُوجَدُ له مَراجِعُ ومَصادِرُ، غير ما بِـأيدِينا من بقايا مخطوطات ووثائق عائلية خاصة، اسْتَنْقَذْنَاها من يَدِ الضياع، بَعْدما زاحَمْنا عليْها الأرضَةَ، والفئْرانَ، وغيْرَهما من القوَارِض، ونَقَّبْنا عنْها تحْت رُكام الغُبار، وأنْسِجَةِ العَناكِب، وداخِلَ مُحْتوياتِ أشْباه المَكْتبات الخصوصية البَدَوِية المُتنقلة المُتهالِكَة، وفي تلافيفِ أدْمغةِ وذاكِرةِ رجال ونساء الجِيل السابق، عبْر جلساتٍ أشْبَهَ ما تكونُ بجَلساتِ التنْويم المغْناطيسيّ، أو اسْتحضار الأرْواح، أو العصْف الذهْنيّ، وتقْنيات التداعِي الحُر...

فأنا الآن أتحَرَّكُ في منْطِقة مجْهولة، انْحسرَ دونها مَدُّ الدراساتِ الوطنية، وبقيتْ جزيرةً معرفيةً بِكْرا، بمَنأى عن أقلام الباحثين، المُولَعَةِ بالخوْض في المَواضيع المَطْرُوقة، وتكْرار المُتداول، وتحْصيل الحاصل، والتي لم تكلف نفسها

[1]- انظر: أبو الفرج بن الجوزي: **"صيد الخاطر"**، دار القلم، دمشق، ط1، 2004م، ص 498، حيث يعلن ختامه: "مقتصرًا فيه على ما به "التخلي من الأمراض النفسية، والتحلي بالآداب الشرعية، والأخلاق المرضية".

-غالبا- عناء تحقيق ماهية البحث، الذي هو -في كنهه- تنقيب عن المجهول، وفعْل لغير المفعول، وتعليم لغير المعلوم، وتفهيم لغير المفهوم، حيث ظَّل الدارسون للأدب الموريتاني -في مجملهم- يُدْمِنون الدوَرَانَ في الحَلقة المُفْرَغَةِ ذاتِها، حتى ترسَّخَ لديهم أنْ "ليْس في الإمْكان أبْدَع ممَّا كان"، وأنْ لا وُجُودِ لمُدَوَّناتِ شِعْرِيَّةٍ -مهمة- خارجَ مَدَارِ رُؤْيَتِهم ومنطقة اهتمامهم، وهنا لابد أن ألتمس العذر لجهل بعض الباحثين، وتجاهل بعضهم، **لأدبيات** هؤلاء القوم، إذ من الضروري الاعتراف بأنَّ **"أهل آدب"**، لم يعلنوا منتجهم، ولم يقدموه للآخرين، وبأن أي باحث، من خارج دائرة **"أهل آدب"**، لو تجشم اريتاد الآفاق، غير المكتشفة حتى الآن من ثقافتنا، وقرر البحث في أدبيات هذه العائلة، لوجد صعوبات كثيرة في فهم السياقات والأنساق الخصوصية هناك، إذ لكل بيئة أسرار ورموز وإيحاءات وخلفيات، لا يكاد يفهمها إلا أبناؤها، باعتبار "أهل كل مكة أدرى بشعابها".

ولعل أقرب دليل على ذلك هو أسماء الأسرة التي أتصدَّى الآن لمقاربة تراثها؛ فالأسماء الشائعة المتداولة والمشهورة لأفرادها، ليست هي الأسماء التي يوقعون بها علميا في فتاويهم، وكتاباتهم، ووثائقهم عموما؛ فمن أين لباحث يعرف **"آدب"** مثلا أن يعرف أنه هو **عبد القادر** بن سيد الأمين؟ ومن أين لمن يعرف **"سيدي" بن آدب** أن يفهم - من وثائقه- أنه هو **محمد بن عبد القادر** بن سيد الأمين البوسيفي؟ أو لمن يعرف شقيقه **"الشيخ أحمد" بن آدب**، أن يدرك أنه هو الذي يوقع **بأحمد بن عبد القادر**، حسب ما درج عليه هؤلاء القوم من توقيعات ينتزعون فيها الكنى، وألقاب السيادة والمشيخة، من أسمائهم، ويتواضعون بكتابة الاسم الأصلي المجرد لكل منهم، حتى ولو كان أصبح شبه مجهول في سياق التداول التوقيري الذي يحظون فيه بالتبجيل والتدليل؛ فلعل هذه أبسط المشاكل العلمية التي يمكن أن تواجه أي باحث من خارج محيط الأسرة

نفسها، بل إنه لن يمضي وقت طويل حتى يصبح أجيال الأسرة القادمون أنفسهم معرضين لهذا التضليل؛ لتقادم العهد بينهم وبين هذا التراث.

ينضاف إلى ذلك مشكل اختلاف البيئات، وتمايز أخلاقياتها، وعادات وثقافات كل منها عن الأخرى، إذ في ضوء ذلك ربما يتعرض للتضليل أيضا أي باحث أراد أن يقرأ نتاج منطقة معينة، مستصحبا نتائج قراءته لتراث منطقة أخرى، حيث ستتولد عن ذلك مصادرة وقياس مع وجود الفارق.

وأمام هذا كله قررتُ أنْ أحوِّلَ القرَابَةَ من عائقٍ عن البحْث العلميّ، إلى حافزٍ عليْه وجسْر إليْه، اسْتِشْعارًا لمَسؤوليةٍ أخْلاقية، وعلْمية، ووطنية، تدْعو لتَجَشُّم عنَاءِ القِيامِ بهذا الدوْر، في سَبيلِ تَلافِي جُزْء مجْهولٍ من تُراث هذا البلد، وهذه الأُمَّة، ولعَلَّ هذا ما يجْعلُ التصْريحَ بالاقتصار على تَناوُلِ أدَبياتِ منْطقة مُحدَّدَةٍ، أو قبيلةٍ مُفْرَدة، أو أسْرَةٍ مُعَينةٍ -على عِلَّاتِه- أكْثر مِصْداقيةً من هاتيكَ الدراسات القائمة على مُصادرات تدَّعِي فيها تعْميمَ موضوعها، وتناولها باسم **"شنقيط"**، و**"موريتانيا"**، وهي - في **الحقيقة**- تستخدم **"مجازا مرسلا"**، تطلق فيه **"الكل"**، وهي تريد **"الجزء"**.

وهكذا يكونُ مُجَرَّدُ اقْتراحي لعنوان عن **"المقاومة الأخلاقية في أدبيات أهل آدب"** فيه استرجاع، مزدوج لظلال من الجانب **الروحي/ الأخلاقي** لهذ العائلة، حيث كان لها **كثير من المريدين**، في مختلف أطياف محيطها الاجتماعي، وحتى خارجه، منذ تسلم عبد القادر **"آدب"** بن سيد الأمين، **إجازته**، من يد الشيخ سيدي بن المختار الهيبة، في حضرته الجليلة المنتشرة الإشعاع المعرفي، والعرفاني، سنة: 1265هـ-1848م، **"في الأوراد القادرية، والأحزاب والتوجيهات المحمدية والمختارية، أخذا وعطاءً وروايةً وإرْواءً، بالشرْط المَألوف والسَّنَنِ المَعْروف خَلَفًا عن سَلَفٍ..."**، ثم ضرب الزمان ضربانه، أخيرا، وفعلت تحولاته في أحفاد المشائخ وأحفاد المريدين فِعْلها، فامَّحت أسماء الأسلاف، من سلسلة القادرية، أشياخا ومريدين، لدى المهتمِّين بها من الأخلاف.

زد على ذلك أن في النصوص والفصوص المستدركة هنا من نثر القوم وشعرهم، شاهدا على **أدبياتهم**، التي قلَّ من يعرف – عنها اليوم– سوى أصداء الشهرة الشعرية الطاغية **لمحمد بن آدب**، وكأنَّ محمدا ليس سليل **"بيت شعر" وأدب، وفقه، وصوفية، وأخلاق، عريق** في سلالته المتوارثة أجيالا، ومُتَمَكِّن في **سلسلة سنده** الطويل المتصل عبر العصور.

وفي الأخير أعتقد أن منطوق العنوان الصريح، المخصوص بهذه العائلة، سوف يعفيني من محاسبة القراء لي على عدم التطرق إلى أي موضوع، أو استطراد لا يلامس جوهر العنوان، فأنا رهينُ أطروحتي ووفيٌّ لها، ولم أخادع أحدا بادعاء شموليةٍ حقيقتُها الخصوصيةُ في النهاية، حتى تناولي لقبيلة **كنتة** عموما، وفخذ **أولاد بوسيف** خصوصا، لن يكون إلا تدرجا إلى **أهل آدب** بصورة أخص.

ثانيـــا

التكنتي، والتفتي

إنَّ وصْفَ **"التكَنْتِي"**، الذي وُسِمَ به هؤلاءِ القوْم، قد **انتقل**-عبْر التاريخ- **من النسبة العرقية** "الكنتية" التي أخذها سيد محمد **الكنتي** الجد الأعلى للقبيلة من أمه، **إلى النسبة الأخلاقية** البحتة، حيث كان -في أصْل إطْلاقِه- يَخْتَزل مَنْظُومَةً من القِيم الفضيلة النبيلة.. تُرَادِفُ" **اسْتَفْتِي**" باللهْجَة الحسَّانية، أو **"التفتي"** الذي هو **"الفُتُوَّة"** بالفُصْحَى[1]، لكنَّ **"الكرَمَ**/ السخاءَ" كانَ **أبْرزَ** تلك المَنْظُومَةِ الأخلاقية، **وألْصَقَها برُوح "التكَنْتِي" و"التفتي"** مَفْهومًا ومُصْطَلَحًا، وهُوِيةً وذِهْنِيةً، والعجيب أن معاجم اللغة العربية غلَّبَت السخاء والكرم في منظومة قيم **"التفَتِّي"**، كما هو حالها في **"التَّكَنْتِي"**؛ ففي الصحاح: **والفتى**: **"السخي** الكريمُ. يقال: هو فَتًى بيِّن الفتوّةِ. وقد **تَفَتَّى** وتَفاتى"، بل إن صاحب تاج العروس تجاوز إلى المعنى الأخلاقي العرفي **"للفُتُوَّةُ"**، فهي **"إِفي عُرْفِ أَهْلِ التَّحْقِيقِ** أَنْ يُؤْثرَ الخَلْقَ على نفْسِه بالدُّنْيا والآخِرَةِ.

وصاحِبُ الفُتُوَّة، يقالُ لَهُ: **الفَتَى**، وَمِنْه: **"لَا فَتَى إلاّ عليّ"**؛ وقولُ الشاعِر:

فإنّ فَتى الفتيـان مـن رَاحَ واغْتَـذَى لـــضرّ عــدوّ أو لنَفْــعِ صَــدِيقِ

[1]- جاء في: **شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم**: [التفتي]: تفتّى: من الفتوة.

وعُبِّرَ عَنْهَا فِي **الشَّريعةِ بمكارِمِ الأخْلاقِ**، وَلم يَجِئْ لَفْظُ الفُتُوَّة فِي الكِتابِ والسُّنَّةِ، وإنّما جاءَ فِي كَلامِ السَّلَفِ، وأَقْدَمُ مَنْ تكلَّمَ فِيهَا جَعْفَرُ الصّادِق، ثمَّ الفضيلُ، ثمَّ الإمامُ أَحمدُ، وسهل، والجُنَيدُ، وَلَهُم فِي التَّعْبيرِ عَنْهَا أَلْفاظٌ مُخْتَلفَةٌ والمآلُ واحِدٌ".

وبعد هذا المقتبس التأصيلي "للفتوة" لغة وعرفا، نتلمس الخيط الواصل بين **التكنتي والتفتي**، الذين **جعلتُهما وجهين لعملة أخلاقية واحدة**، في تمهيدي لأطروحة "**المقاومة الأخلاقية**"، التي أقاربها في "**أدبيات أهل آدب**"، وهنا نجد أن **الجد الثاني** لقبيلة كنتة الذي انبثقت منه فروعها، ربط بين هذين المفهومين، عندما سأله أبناؤه ذات مرة عن نسبهم المرفوع إلى فاتح إفريقية العظيم: **عقبة بن نافع** الفهْري **القرشي**، فاستمْهَلهمْ حتى الصباح، وعندما راجعوه في الموعد: فاجأهم: **بقصعة ولوح**: وقال لهم هذه **أمُّكم**، وهذا **أبوكم**.... موجها إياهم إلى **النَّسَب القِيمِيِّ** الخُلقيِّ، الذي يرجع للشَّخْص الفضلُ في كسْبه، صارفا نظرَهم عن **النسَّبِ الطِينِيِّ**، الذي يشتركُه بنو آدم جميعا، وليس من كسب وارثِه من أبويه، ويصعب تحقيقه والتحقق منه.

وقد رَصَدَ أَحَدُ مادِحِيهِمْ مُجْمَلَ منظومتهم الأخلاقية، حيث قال في لامية من الطويل:

سلامٌ عليْكم، أيُّها المَلَأُ الأعْلى ... سلامٌ يعُمُّ الشِّيبَ والمُرْدَ والطِّفْلا
على بَاحَةِ الكنْتِيِّ؛ فرْعًا، ومَحْتدا ... سلامٌ على كَرِّ الجَدِيدَيْنِ لا يَبْلَى
يَطيبُ كطِيبٍ منْ أطايبِ طِيبهمْ ... لذيذ، ومنْ أحْلَى حَلَاوَتِهمْ أحْلى
ألذّ، وأشْهى من مُعاقَرَةِ "الأتا" ... ومِنْ قَرْقَفٍ فِي الدّنِّ مُعْتَقَةٍ حَوْلا
إذا ظَعَنوا؛ فظَاعنٌ معهمْ، وإنْ ... هُمُ نزَلوا وكْرًا؛ ففِي وَكْرِهِمْ حُلَّا
فحقَّ لهمْ أنْ كلُّ حَيٍّ يُحِبُّهُمْ ... وكُلُّ نَبيلٍ أنْ يُعَظِّمَهُمْ نُبْلَا
وحقَّ لهمْ مدْحٌ علَى كلِّ مَادِحٍ ... وذلكَ نزْرٌ مِنْ مدائِحِهمْ قَلَّا

هُمُ القوْمُ لا يَشْقَى جَلِيسٌ لهـمْ، ومـنْ يُبارِزْهُمُ حَرْبًا؛ فقـدْ حـاربَ المَـوْلَى
إِذَا زُرْتَهُـمْ زُرْتَ المَعَـارِفَ والتُّقَـى وحُسْنَ السَّجَايَا والبَشَاشَـةَ والبَـذْلا
وإنْ ضفْتهمْ ضفْتَ السـماحَةَ والهُـدَى وتوْسِعَةَ الأكْنَافِ، والرَّحْبَ، والسَّهْلا
وإنْ شـمْتَهمْ شـمْتَ الـبُرُوقَ لوامِعًـا تَسُوقُ -إِلَى الأجْرَازِ- أسْواطُها الوبْلا
وإِنْ جِئْـتهمْ ألْفَيْـتَ عنْـد بُيـوتِهِمْ مَجَالِسَ قد تُطْفـي بأَحْلامِهـا الجهْـلا
هـمُ البـاذِلونَ عِلْـقَ كـلِّ مَضـنَّةٍ هُمُ التاركونَ مـا يُعـابُ، ومـا يُقْـلى
بنُو الحَرْبِ، عنْد الحـرْب، أسْـدٌ بَوَاسِـلٌ ضَوَارٍ، تَخافُ النَاسُّ أنْيَابَهـا العُصْـلى
وفِي السِّلْم، عنْد السِّلْمِ، بيضٌ وُجُـوهُهمْ تُضِيءُ الدُّجَى، كَالبَدْر، فِي الصحْوِ، إذْ هَلَّا
إذا لبسُـوا أدْرَاعَهـمْ فضَـرَاغِمٌ وإِنْ لبسُـوا تِيجـانَهمْ فهَـمُ الجُـلا
فـأكْرِمْ بهـمْ حِزْبًـا، وأكْـرِمْ بهـمْ أبًـا وأكْرِمْ بهـمْ أمًّـا، وأكْـرِمْ بهـمْ نسْـلا

ثالثـــا

أولاد بوسيف
خصوص الخصوص

هنا يبدو أيضا أن الشيخ سيدي المختار كان يربط بين **"التَّكَنْتِي والتَّفَتِّي"**، بشكل عام، ويعتبر **"أولاد بوسيف"** قوم **"أهل آدب"**-محور بحثنا- هم مضرب المثل في ذلك، حيث يروي عنه ولده وخليفته الشيخ سيدي محمد، في كتابه: **"إرشاد السالك إلى أقوم المسالك"**، الذي ألفه لتلميذه ومريده: مْحمد "ويقي" بن سيد الأمين بن محمد بن الطالب اعمر بن خيري البوسيفي، -شقيق **آدَبَّ**- موحيا بأن فتوة القوم تدْخل في صميم مقامات السالكين، حيث أورد القصة في آخر الفصْل الأول في منزل الإخلاص من الباب الثاني في مقام الايمان، في الكلام على الفتوة، فقال: «وسألت **الشيخ** الوالد رضوان الله عليه عن **الفتوة**، فقال: **ما كان عليه سلف كناتة من كمال المروءة، وتمام الإيثار، وحسن الجوار**،... ارتحل أحياء كناتة من المغرب الأقصى إلى الساحل، وخلَفهم في ديارهم **الأمين بن أبي أذينة الأبي بكري** بمراصد الأضياف، وكان يحلب مائة لقحاء، فزحَمَتْه الأضياف، فأنفق حتى فني ما عنده من الزروع واللحوم. ثم عمد إلى لقاحه ينحرها للضيف ويلقي شُمُلَها على شجَرة بجانب خيْمته، حتى أتى على آخرها، فبلغ ذلك **محم بن أحمد بن أبي سيف**؛ فآلى ألا يقيم حتى ينزل عليه، فارتحل بحيه **بني أبي سيف**، فلما نزلوا بقرب من **الأمين** غدوا عليه مُسَلِّمِينَ، فلما ركبوا من عنده قافلين أخذ كل واحد

منهم من تلك الشُّمُل، حَتَّى أتوا على آخرها، فأراحوا عليه مائة لقحاء بأثلائها، وما يكفيه من الحمولة، فأصبح راحلا فيهم من أغناهم وأوسعهم ذات يد"[1].

وفي هذا الإطار أيضا يروي (**الشيخ سيدي محمد** بن **الشيخ سيدي المختار** في كتابه **الطرائف والتلائد** في ترجمة والديه: ما محل الحاجة منه هنا قوله: "وكان رضي الله عنه يعني والده الشيخ سيدي المختار حريصا على أداء فريضة الحج، لم تنحلَّ عزيمته عنه، بل سمعتُه رضي الله عنه يقول: ما أعجلَ قفُولي من أرض المغرب الأقصى إلا مبادرة الحج، مع وطأة بلاده للإقامة بها في أكرم إخوان، وأخلص خلصان **من أكابر أولاد أبي سيف**، كـ **محم بن باب** و**أبنائه**، و**أبناء جيْبابَ**، و**أبناء الطالب أعمر بن خيري**، و**أولاد سيد أوبك** بن أحمد، و**المعزوز**، وغيرهم من الأمجاد، الرؤساء والأجواد، العلماء الموطئي الأكناف، المجبولين على الإسعاف والانصاف، والاتصاف بأجمل الأوصاف.

حتى أنه قد لقيني يوما بعضُ **رؤساءِ أولاد الناصر**؛ فقال يا فلان: أي كناتة أهلك؟ قلت: جميع كناته أهلي، قال: وإن كان كلهم أهلك ففي **الخصوص خصوص**، فأخبرني عنه وإلا أخبرتك، قلت: أخبر.

قال: **يا شيخ**، إذا وقع **جبلٌ** من السماء، فمنْ يُقِلُّه؟ قلتُ: **الأرضُ**، قال: فأنْت **جبلٌ**، **وأرْضُ كَنَاتةَ أولاد أبي سيف**؛ فلا يكونُ لك أهلٌ غيْرهم.

قال: ومن أبدع ما رأيت من شأنهم أنه وقع نزاع فيما بين رئيسين من رؤسائهم في شان الولاية على "**الرفقة**"[2]، خيفَ منه الفسادُ والفِتنةُ، ودخلَ "**تَاكرُ الدليْمي**"-بعدما قتل في غزْو فتًى من فِتْيان **أولاد أبي سيف**- خيمةَ **المَعْزوزِ** ليْلا "دَخِيلًا"، فأصبحَ أهلُ الثأر يطلبونه بثأرهم ليقتلوه، و**المعزوز** يأبى إسلام دخيله، قال: فغدا عليَّ **محم بن باب**، وقال: يا فلان، تدارك **أولاد أبي سيف** وإلا هلكوا، فقد عجزتُ عن إصلاح ذات بينهم، فقلتُ له: إذا أصبحت من غداة غد فأمر

[1]- هارون بن الشيخ سيدي: **الأخبار** "المدون"، ص 70.

[2]- تطلق في اللهجة الحسانية الدارجة على قافلة الميرة، الشبيهة عندهم بمصطلح العير عند العرب قديما.

بخيمة تبْنى على تلك **النبكة**، وأمر بمن يَضْربُ **الطبْلَ:** أنْ لا يتخلف رجلٌ عن موْضع الطبل، ثم عمدتُ إلى ناقة ماخضٍ كأحسن ما يُرى من مخَاض النياق، فقلتُ لسيدي علي: إذا أصبحتَ، وغدوْتُ إلى الخيْمَة التي تُبْنى، فاسْتَقْ هذه الناقةَ واعْقِلها بإزاء الخيْمة. قال: فلمَّا أصبَحنا بُنِيَتْ الخيمةُ، وضُرِبَ الطبْلُ، واجْتمعَ الناس، فركبْتُ إليْهم، وأقبلَ سيدي علي يسوق ناقتَه، فلمَّا وافيتُ الناسَ مُحْدِقِينَ بالطبْلِ، وافَى سِيدي علي بناقته فعَقَلَها بحيْث يراهُ الحاضرون، فقلتُ: يا فِتيان بنِي أبي سيف "لَخْمَار"[1] هذا سيدي علي جاء بهذه الناقة، فليأت كل واحد منكم بمثلها، أو بأعلى منها، قال: فو الله ما التفت أحد منهم إلى غير الجهة التي كان وجهه إليها، بل انصرف كل واحد منهم للجهة التي كان متوجها إليها وكأنما كانوا جرادا، فطار؛ فلم نلبث أن جاءوا من الجهات، ومن لا يسوق منهم ناقة لقحاء عليها شمالها تتبعها أنثى، يسوقها ماخضا تدافع ضرعها، حتى اجتمع على تلك النبكة مائة وعشرون ناقة ما بين لقحاء وماخض، قال: فذهبت إلى أهل القتيل، فأعطيتهم مائة ناقة دية عن صاحبهم، وتشفَّعْتُ إليهم في العفو عن الجاني فعفوا عنه.

وذهبت بعشرين ناقة لقحاء تتلوها عشرون حوارة أنثى، فتوجهت إلى "احميدتُّ" في أن يترك "الرفقة" وزعماتها، ويأخذ العشرين ناقة، فقال: "أمَّا الزعامة فقد تركتُها لوجْهِكَ، وأمَّا النياق فلا آخذها، فقلت له: لا تردَّ هذا الخيرَ المَسُوقَ إليك، وخذه لوجْه البركة، وأنَا عازمٌ عليْك فِي قبوله؛ فقبِلَ ذلك، وسكنتِ الفتنة، ولله الحمد والمنة"[2].

وفي هذا السياق يقول **محمد بن باب** بن باب أحمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي في همزية من البسيط:

---

[1]- لفظ يعني في اللهجة الحسانية محكاة شخص لآخر، في فعله، وهنا يحضم على المنافسة في التكرم بالنوق، من أجل الحمالة التي يفكر فيها.

[2]- الجزء الخاص بكنته من **الأخبار** "المدوَّن": ص 134- 136.

بنـــو الكـــريم أبي ســـيف ألِبَّـــاءُ وهـــمْ لمـــنْ صَـــحِبُوا - حَقًّـــا- أَوِدَّاءُ
أحْـــوالهمْ في الحـــروب غـــير خافيـــة والســـلم فيـــه لهـــمْ ذكْـــرٌ وأنْبـــاءُ
وهـــم عبيـــدٌ لمـــن رامـــوا تَعَبُّـــدَه وأسْـــدُ غـــابٍ- لمـــنْ عـــادوْه- ضُرَّاءُ
إنْ قـــالَ قـــائلهمْ: هـــذا نـــزيلكمُ قد جاءَ.. لَبَّوْا.. وزالَ الكرْبُ والداءُ
صدورهمْ مـن رُيـونِ الغِـلِّ خاليـة كـــأنما خـــاض في أرجائهـــا المـــاءُ
أكُفُّهـــمْ بـــالنوالِ.. إنْ خَـــبرتهمُ سُحْبٌ، وأنْفُسُهمْ- بالبذْل- سَـحَّاءُ
غنِـــيُّهمْ وفقـــيرهمْ سواســـية في البذْلِ، إنْ دهمتْ- في الدهْر- دهْماءُ
تـرى الفقـيرَ غَنِيًّـا، وهْـوَ لـيسَ لـه - من كسْبِه- إبِلٌ- تُلْفَى- ولا شـاءُ
بـــل القناعـــة.. كنْـــزٌ لا نفـــادَ لـــه فاسْـتعْملوها.. وفضْـلُ اللهِ سـحَّاءُ
لهـــم خلائـــقُ تنْفِـــي العـــارَ... .....
توارثوهـــا عـــن أجْـــدادٍ أســـاتذة كلٌّ - عـلى حـدة- كالبـدْر مضْـواءُ
فاســتنبطوها بــنص كــل ذي مِقَــةٍ لله.. فاستنبطوا - بالنصر- ما شاءوا
وهـذَّبُوا العِـرْضَ بـالأموال جاريـة كَرَّ العُصـورِ لهـا - بـالكثْرِ- إسْـداءُ
فبـــارك الله فـــيهمْ، ثـــمَّ أيَّـــدَهُمْ على العُـداة.. وجُـلُّ النـاسِ أعْـدَاءُ
وعَمَّهـــمْ بنعـــيمٍ لا يفـــارقهمْ لهمْ بـه - عـن لِئـام النـاس- إغْنـاءُ

ويقول **أحدهم** يرحب بوفد من **أولاد بوسيف (من الطويل)**:

لقـد سَرَّنـا إذْ فـاحَ عَـرْفُكمُ العَطِـرْ ولاحتْ بُروقُ الوُدِّ من نوْئِكَ المَطِـرْ
فيـا مرْحبـا، أهْـلا، وسـهْلا بطلعـة مـن أبْنـا أبي سـيفٍ سواسـيةِ النّفَـرْ
ألا مرْحبا، أهْلا، بكم، خـيرَ عُصْـبَةٍ تفانتْ على عهْد مَدى الدهْر مُسْـتَمِرْ
عليكمْ سـلامُ الله، مـا هبَّـتِ الصَّـبا ومـا انْهَمَلَـتْ مُـزْنٌ بوابِـلِ مُنْهَمِـرْ

رابعـــا

أگان: "ربْع عَزَّة البوسيفيين، وعزتهم"

لقد كانت منطقة "**أگان**" وما جاورها إحدى مواطن أولاد بوسيف الأثيرة لديهم، وقد قال هارون بن الشيخ سيدي إن (الحراطين من أولاد بوسيف... أرضهم آگان، وما يليه من التومر، ومن تگانت)[1] وقد ذكر بعض الشعراء، نفوذهم هناك، ومنعة حريمهم، حيث قال الإمام بن ماناه الجكني الرمظاني، من مخضرمي القرنين 12-13هـ يفخر بقومه، ويعتز بمنعة جيرانهم أولاد بوسيف الذين يعتبرهم أسباطا وأحفادا لبني جاكان، لخؤولتهم منهم عموما، ومن الرمظانيين قبيلة الشاعر خصوصا (الوافر):

لقـد رَمَـت الأوانَ بكـل طـود ... هـو المرْمـى "بجاكـان" القبـابُ
عـلى أنْجـادِ آگـان الأعـالي ... بحيث -الـدهرَ- ينسكبُ الربـابُ
ونحـن النـازلون ذرى المعـالي ... ونحـن التـاركون لمـا يُعـابُ
ونحن بنـوا النضـال، ونحـن أدرى ... كأنـا أهـل مكـة والشـعابُ
مَـرَادٌ بـين أحْفَـادٍ مُلـوكٍ ... مَكاسِـبُها الوَجاهـةُ والرِّقـابُ
فحاطوهـا بجـاههمُ فأضـحتْ ... تِـلادًا لا شـقاءَ، ولا حِسـابُ
بنِـي صـلْبِ العُـلا وأبِي الأعـالي ... أبي سْـيْفٍ، وجيرتُهـا الرقـابُ
وبـين الهـام مـن "بـرْكنّ" جـار ... وقـد غصـتْ بهـم أرْض رحـابُ

[1]- مسودة الجزء الخاص بكنته من "**الأخبار**"، ص 122.

حبانـــا عـــن تكرّمنـــا احترامـــا كـــما احْـتُرِمَ المصـاحفُ والكتـابُ
ومرْمـى مـن أولئـك قـابَ قـوْس ومـن "جاكـان" والأسـباط قـابُ
فـــنِعْم المهـــد بـــين أبٍ وأمٍّ جهـادٌ لا سُـكون، ولا اضْـطِرابُ[1]

أما **سلفنا** النَّسَبِيّ والأدَبِيّ، من **أبناء الطالب اعمر بن خيري** فقد كانوا يعتبرون **"أگان" ربع عَزَّتهم وعِزَّتهم،** فزرعوا خرائط تلك الأرض بالحب والشعر، وعرفوا كيف ينفخون روح الوطن إعصارا في بحور القصائد، مستحضرين -هناك- عهد القوة والسيادة والملك، الذي ذكره خالهم الشاعر الجكني، فهذا:

1- أحمد بن المختار بن أحمد بن الطالب أعمر بن خيري البوسيفي

يدندن حول تشوقه إلى مرابع قومه في منطقة **"أگان"** شمال مقاطعة مقطع الحجار الحالية، حيث يعتبر ابتعاده عنها، غربة ممضة، حتى ولو كانت إلى منطقة **"فصْك"**، مدفن سيدي محمد الكنتي الجد الجامع لكناتة قبيلة الشاعر، حيث يقول من الطويل:

ألا فـاعجبَنْ -يـا قلـبُ- مـنْ مُلْـكِ ذِي المُلْـكِ
إذَ أنـتَ لـدَى الجِـوَا، وفي السـفْحِ مـن "فَصْـكِ"
وقـــد كنـــتُ لا أنفـــكُّ بـــين مَـــنازل
بهـــا نِـــيطَ -في جِيـــدي- تَمَـــائمُ، في السِّـــلْكِ
فعـــاتق "تِنْقَـــرَاشَ"، فـــ"النَّبْـــك"، فـــالرُّبَى
إلى السَّـفْحِ مـن "وَازَانَ"، فـالنَّعْفِ مـن "ينْـكِ"

[1]- الدكتور محمد المختار بن اباه: **الشعر والشعراء في موريتانيا**، الشركة التونسية للتوزيع، ط 1987، ص 344- 345.

بـــلادٌ بهـــا كنَّـــا- عـــلى رغْـــم حاســـدٍ
أمَـــامَ الـــوَرَى، في العلْـــم، والحلْـــم، والمُلْـــكِ
وقـــد كـــان للأيـــام -في الـــدهر- للفتـــى
منـــازلُ، مـــن رحْـــبٍ، عليـــه، ومـــن ضـــنْكِ
ومـــن عـــاشَ في الأيـــام لا بـــد أنْ يَـــرَى
حـــوادث مِنْهَـــا مَـــا يَسُـــرّ، ومـــا يُبْكِـــي

وعندما رمت به الحياة بعيدا عن معشره الذين يراهم "أمام الورى في العلم، والحلم، والملك"، ومرابعه الآنفة التي يراها جنة الدنيا، انفجر على لسانه أول نص -فيما نعلم حتى الآن- من شعر **"الزريگة"**، الذي يمزج بين مفردات العربية الفصيحة، ومفردات اللهجة الحسانية الدارجة في القصيدة، وعبْرَه يهدي لمقطع الأحجار ونواحيه شرف ريادة فن **"الزريگة"**، ما لم يوجد نص أقدم، فشاعرنا كان حيا في بدايات القرن 13هـ، قبل أمحمد بن أحمد يوره، ولكيبد بن جبه، الرائدين المشهورين لهذا الفن في منطقة القبلة، حيث قال نونيته "الزرقاء" في ظروف طلب العلم الشاقة، وشظف حياة المتغربين من تلاميذه بين المحاظر، حيث قال من البسيط:

يـا مـن لمكتئـبٍ، حـيْرانَ، ولْهَانـا ... نـائي المُـؤنس، مـن أحْيـاءِ آگانـا
رمـى بـه القـدَرُ المحتـوم في بلـد ... مـا إن يـرى أحـدا يوليـه إحسـانا
يبيت في دهش "ديْسانَ" من سغب ... وفي النهار ضحى، حميان، عطشـانا
ينام في"الصَّمْرَ" في برد "يُگبگبه" ... ولا فراش يقيه الأرض "گرْسـانا"
يظـل إن ظعنـوا رجـلان بيـنهم ... لم يحملـوه إلى أن راح حـسرانا
لا مـن يقـول لـه: "هـجٌّ"، فتنفعـه ... "فلَحْـر كـاعْ" أحـد يعطيـه كتَّانـا
إنْ رامَ مـن أحـدٍ بـذْلا هُنـاك غـدَا ... مِثْلَ "الصگوط" الذي يجيئُ حشْمانا

عند التحاليب وقْتَ العَتْم منطويا ولم يجدْ بَلـلًا فقام نكْدانا
يا ليْتَ شعْريَ، هل آتي إلى فضِلٍ يزيلُ -إنْ جِئْتُه- عنيَّ- إدْخانا
أو شئْت ذا أدبٍ، قرْما، أخا كرم من رامَ نائلَه لم يلقَ حرْمانا
لم يَعْتَذِرْ، قَطُّ، منْ عدْمٍ يكونُ به إلى العُفَاةِ، ويُعْطِي العاطي عجْلانا
ولا يذوق مذاقا وسْط خيْمته عنْ جارِه، أبَدًا، إنْ كانَ غرْثانا
"مَنْدَرْتِ" عن معْشر ذا هوَّ وصْفُهم أهْل المَكارم ذكْرانا ونِسْوانا
سِيَّانِ، في المَجْد، يا منْ كنْتَ جَاهِلَهم بَنُو أبي السيْف، لا فخْرا، ونكْرانا

وغير بعيد، من هذه المرابع يستثير شجوه نزوله في منطقة مقطع الحجار، من ربوتي "التوأمين"، غربيه، إلى "التاشوط" (تاشوط أولاد بوسيف) شرقيه، فيقول من الكامل:

أغْرَى المَدامعَ، والشجونَ، هبوطي بـ"التَّوْأَمَيْنِ"، ضُحًى، وبـ"التاشوطِ"
أيامَ كنتُ بها، و"كنْتَه" برَبْعِها والدهْرُ يَرْفلُ، مائسا، بمُروطِ
...مَهْلا.. فهذا الدهْرُ ما اسْتِقْرارُهُ -في صَرْفِه- مِنْ شَرْطِهِ المشْرُوطِ
ما شَأنُ حُرٍّ.. ماهِرٍ بصُرُوفه في رحْمَة الرحْمَانِ.. شَأنَ قنُوطِ
ولقد محَضْتُ النُّصْحَ.. غيْرَ مُغَالِطٍ فِي هَذْيِ خبٍّ.. بالفُضُولِ.. غَلُوطِ
إنْ يَهْذِ -فِي إسْقَاطِ قَدْرٍ- سَاقِطٌ فَارْفضْهُ -فِي هَذَيَانِه- لسُقُوطِ

2- الشاعر: أحمد بوه بن محمد بن محْمد بن الطالب اعمر بن خيري البوسيفي

، ابن عم أحمد بن المختار الآنف الذكر، حيث يقول في همزية من البسيط:

يا برْدَ ما هبَّ من نحْو الأحِبَّاءِ من ناسمٍ دبَّ في صدْري وأحْشائي!
هبْتْ عليَّ نُسيْماتٌ.. تُجَدِّدُ لي ذكْرَ الأوِدَّا، فمنْ لي بالأوِدَّاء؟

مَـنْ لي بِـرَدِّ زمـانٍ، لا مَـرَدَّ لـه ... يُغْضِي جفونَ المَساوِي كـلَّ إغْضاءِ
وأهْـلِ دارٍ.. بهـا دارتْ- مُشَعْشَـعَةً ... أقـداحُ صرْخَـدِها بـيْن الأخِـلَّاءِ
دارٍ مـن الجِـيرَةِ الأحْيَـاءِ مُقْفَـرة ... بـيْن الجُرَيْـفِ، وآكـامِ الحُمَـيْرَاءِ
عَـرِّجْ عَلَيْهَـا، وَسَـلْهَا أيْـنَمَا ذهبـتْ ... سُـعْدَى، وأتْرابِهـا مـن كـلِّ بيْضـاءِ
ومـا سُـؤالُكَ عـنْ سُـعْدَى ببالِيـةٍ ... مُذْ أزْمُنٍ، طمَسَـتْها الـريحُ، صـمَّاءِ؟
إنْ تمْـسِ مُمْحِلَـةَ الأرْجـاءِ خاليـةَ ... مـن آل لـيْلَى، ومـن لـيْلى، وأسْـمَاءِ
أو تُمْسِ مهْجـورةَ الأكْنَـافِ، مُذْكِيـة ... نـارَ الأسَـى بفـؤادي أيَّ إذْكـاءِ
فكمْ تَضاحَكَ، حـوْلَ القـاطنينَ بهـا ... فِي روْضـةٍ مـن بَسُـومِ الزَّهْـرِ غنَّـاءِ

3- أحمد بن أحمد اشنان بن بُو ابراهيم بن حبيب الله (حيْبَلَّ) بن باب بوسيف، دفين مقطع الحجار: وهو خال أبناء سيدي الأمين بن امحمد بن الطالب اعمر بن خيري: مْحمد (ويقي)، والشيخ، وعبد القادر(آدب).

كان هو الآخر له نصيب من الشاعرية البوسيفية المسكونة بحب هذه المنطقة، والحنين إليها، والدفاع عنها، فهنا يقول في لامية من الخفيف:

ليْت شِعْري، من أيْنَ ريَّـا الغـوَالي؟ ... أسَرَى في الجنُـوب؟ أم في الشـمال؟
غـالني الـدهْرُ بـالخُطوب، فمـنْ لي ... بمُعـينٍ، عـلَى صُروفِ الليـالي؟
لـيس يشـفيكَ، مـن مُصَـابكَ، إلَّا ... أنْ تجـوبَ الفَـلاةَ فـوْق الرِّحـالِ
قاطعًـا صـعْبَها، بكـلِّ ذَلُـولٍ ... وذَمُـولٍ، تجـمُّ بعْـد الكَـلَالِ
جـسْرةٍ، تسْـتخِفُّ هَـوْلَ الفَيَـافِي ... لائـح شخْصـها، كمثْـلِ الهِـلالِ
مـا لهَـا مَـأْرَبٌ، بغـيْرِ رُبُـوعٍ ... حَـوْلَ ذاتِ الظِّبَـا[1]، فشَـاوٍ، فَـزَالِ
هـذه بُقْعَتـي، ومَسْـقَطُ رأسي ... حَبَّـذا سَـاكِنُو رُبَاهـا العَـوَالِي!
فعلـيهمْ منِّـي السـلامُ جميعـا ... وعـلَى الجَـار، والطُّلُـولِ البَـوَالِي

[1]- تعريب لـ"تْوَيْمِيرَة لْهَار، شمال مقطع لحجار.

4- وهذا ابن أخته **مْحمد "ويقي" ابن سيد المين بن أمحمد بن الطالب أعمر بن خيري البوسيفي**، الأخ الأكبر لجدنا عبد القادر بن سيد ألمين **"آدب"**، كان له النصيب الأكبر من الحنين لمنطقة **"أكان"** ربع عَزَّة القوم وعِزَّتِهم، حيث يهديها تحيته وهو في أزواد بحضرة أهل الشيخ سيد المختار الكنتي، فيقول من البسيط:

هـل لِليـالي بـنظْمِ الشَّـمْلِ إسْـعادُ ... أم هلْ لنَارِ الهَـوَى بـالقرْبِ إخْمَـادُ؟
أمْ هـلْ تحـلُّ رُبوعـا طـابَ مَرْبَعُهـا ... مِـنْ قبْـلُ فِيهَـا إذِ الأيـامُ أعْيَـادُ؟
أمْ هـلْ يَخِـفُّ جَـوى قلـبٍ يُقَلِّبُـه ... وَجْدٌ لـذِكْرِ اصْـطِبَارِ الوَجْـدِ ورَّادُ؟
والـدهْرُ وَسْـنَانُ، والأفْـرَاحُ دائـرةٌ ... أفْـداحُها ولحبْـلِ الأنْـسِ إحْصَـادُ؟
يـا مُعْمِـلًا لعِتَـاق الـيَعْملاتِ، لهـا ... في المَهْمَهِ القَفْرِ، بَعْـدَ الأَيْـنِ إسْـعَادُ
يطْـوي، لِطِيَّتِـهِ، فِـيحَ الفَـلَا، فلَهـا ... في كـلِّ فيْفـاءَ إتْهـامٌ وإنْجـادُ
يرْمـي الفِجَـاجَ بهـا، حتَّـى يُبَلِّغَـهُ ... منْهـا، إلَى الأهْـلِ، إرْقـالٌ، وإخْفـادُ
اقْرَأ عـلى الأهْـلِ، والأحْبـابِ، مـن ... لَوْعَاتُـه بازْديـادِ البُعْـدِ تـزْدادُ
دَنـــــــــــــــــــــــفِ ... منْهـا تَقَطُّـعُ أحْشـاءٌ، وأكْبـادُ
صَبٌّ، تُصَبُّ عَلَيْـهِ، للنَّـوَى، حُـرَقٌ ... إلا بـبَرْدِ مِيـاهِ القُـرْبِ إبْـرادُ
ويُضْـرَمُ القَلْبُ إضْرامًا، ولـيس لـه ... منْهمْ جُمُوعًا عِنِ الإلْحادِ قـدْ حـادُوا
تَحِيَّـةً بِحَيَـا الأفْـراحِ مـاطِرةً ... أفْـرادِ مـنْهمْ، ولِلأفْـرادِ إفْـرادُ
وبالخُلاصـةِ مـن تلـك التَّحِيـةِ للـْ ... مـن التَّحِيَّـةِ والتـوْقيرِ إمْـدادُ
اخْصُصْ بها الوالدينَ الأكْرَمينَ لهـمْ ... وهُـمْ مَنَاهِـلُ للـوُرَّادِ أعْـدادُ
فهـمْ مَنـازِلُ للـرُّوَّادِ مُخْصِـبَةٌ ... وهـمْ هُـمُ القـادَةُ الأمْجـادُ الانْجـادُ

ثم يقول:

لقـد أهـاجَ لي الشَّـجُونَ تَـذَكُّرِي ~~أحْيَـاءَ حَـوْلَ مُلَيْـزِمِ الأعْيـادِ~~
~~أحْيَـاءَ يَمْنَعُهَـا الرَّذائـلَ، والخَنَـى كـرَمُ النُّفُـوس، وَعِفَّـةُ الأجْـدَادِ~~

وأخيرا يخصص لـ **"أگان"** وساكنيه البوسيفيين قصيدة كاملة، يتلاعب فيها **بإيحاءات** أسماء المواضع هناك، تعشقا لها، وتماهيا بها، حيث قال من الكامل:

مـا لِلْكَـرَى أمْسَـى جَفَـا الأجْفَانَـا ومَصُونُ دَمْعِـكَ قـدْ جَـرَى جَرَيَانـا
و... في الأفْـراحِ أصْـبَحَ هـاجِرا قلْبًـا بـه اتَّخَـذَ الهُمُـومُ مَعَانَـا؟
أَلِنَـوْحِ وُرْقٍ بالغُصُـون سَـواجِعٍ هـاجَ الهَـوَى ترْجيعُهـا الألْحَانَـا؟
أمْ بَـارقٍ لاحـتْ شـوَارِقُ نُـورِهِ بمَشـارِقِ الأوْطَـانِ مِـنَ "آگانَـا"؟
أمْ ذاكَ مـنْ ذِكْـرَاكَ أحْبابًـا نَـأَوْا تركـوا فـؤادكَ للهـوى مَيْـدانَا
شادُوا بصدْرِكَ للأسَـى سُـورًا، وفي سُـورِ اصْـطِبَارِكَ هـدَّمُوا الأرْكانَـا
عـن نـاظِرَيَّ تَغَيُّبًـا لكِـنَّهُمْ تَخـذُوا الترَائـبَ والحَشَـى أوْطانَـا
سَكَنُوا بأكْنَـافِ "الجُرَيْـفِ" ورُبَّـما زانَ الترَبُّـعُ، مِـنْهُمُ، "وَازَانَـا"
وَأزَالَ عـنْ "زَارٍ" نُـزُولُهُمُ بـه عطَـلا بـه، مِـنْ قـبْلِهِمْ، قـد كانَـا
وأجَالَ في "جولِ البِشَـامِ" نُـزُولُهُمْ فِيـهِ المُنَـى والـيُمْنَ والإحْسَـانَا
وتُرِيكَ "تُورِينُ"... في كل مشـهد .....عمرانـا
أحْلَى "المَرِيرَ" حُلُولُهُمْ، والخَيْرَ مِـنْ سُـكْنَاهُمُ اكْتَسَـبَتْ رُبَي "خَيْرَانَـا"
ولهمْ مَنازِلُ ب"المِلَاحِ" تبَخْـتَرَتْ فيهـا المـلاحُ تُجَـرِّرُ الأرْدَانَـا
يـا حبَّـذا تلـك الرُّبُـوعُ فإنَّهـا كانـتْ لنَـا، قبْـلَ الجِنَـانِ، جِنَانَـا!
فلكَـمْ بِهِـنَّ شربْـتُ كاسـاتِ المُنـى بمـزاجِ تَسْـنِيمِ الهَـوى جَـذْلانَا!
وقطَفْـتُ أزْهـارَ السُّـرُورِ نَـوَاضِرًا لا أشْـتَكِي خَطْبًـا ولا حَـدَثَانَا

خامســـا

وطن البوسيفيين
منطقة الجذب بين حضرتين

ضمن هذا **الفضاء** الموصوف بالجمع بين المثالية المكانية والزمانية والسكانية، كان **أبناء أبي سيف** الكنتيين مأخوذين بجاذبية **الحضرتين** الصوفيتين، الحضرة الأم في الشرق؛ حضرة **أهل الشيخ سيدي المختار الكنتي** بأزواد، وفرعها: حضرة **أهل الشيخ سيدي** في غرب بلاد شنقيط، حيث استقطبتا معظم رجال أهل الطالب اعمر بن خيري وغيرهم من البوسيفيين، طلبا –هنا وهناك– لتعزيز **"المقاومة الأخلاقية"**، حفاظا على **المكان، والمكانة** في ظل التغير الزاحف؛ حيث إن هذه **"المقاومة الأخلاقية"**، التي نتصدَّى هنا لتجلية مفهومها، واستعراض تجلياتها، بحاجة إلى عملية تنشئة وتربية معقدة ومعمقة، قد لا يكفي فيها المجهود الفردي، الذاتي، في مجاهدة النفس، وتعديل سلوكها، وفق مرجعية الشرع، ومنظومة الأخلاق المرغوبة، ومسطرة الأعراف الفاضلة المتوارثة، بل قد يكون لابد فيها من **"إرشاد السالك إلى أقوم المسالك"**، وهذا – في حد ذاته– عنوان كتاب للشيخ سيد محمد بن الشيخ سيد المختار، (جم الفوائد، وهو **في مقامات السلوك**، ومنازله، رتَّبَه مُؤلِّفُه على ثلاثة أبواب، كل باب في ثلاثة فصول، وصل فيه مؤلفه آخر الفصل الأول من الباب الثاني.

وسبب تأليفه مكاتيب تكررت من مريد المؤلف: **مْحمد بن سيد الأمين** بن مْحمد بن الطالب اعمر بن خير **البوسيفي**)[1].

وهو كتاب يشبه مؤلف الشيخ سيد محمد الآخر: **"جنة المُريد دون المَريد"**، الذي ألفه للشيخ سيدي، لذات الغاية السلوكية، الداخلة في صميم **"المقاومة الأخلاقية"**، والتسلح التربوي في مواجهة نزوات النفس، ومكائد الشيطان.

وإذا كان الأستاذ **هارون** بن الشيخ سيدي يرجع كثرة توافد رجالات **أهل الطالب اعمر بن خيري** على حضرتهم، بقوله: (ومما تقدم من ذكر رجال أهل الطالب اعمر بن خيري المذكورين، **وتتابعهم على الشيخ سيدي** ترى مدى تأثرهم **بسابق ألفة محمد بن سيد ألمين معه**، زمنهما عند **الشيخ سيدي محمد** بن الشيخ سيدي المختار، رحم الله السلف، وبارك في الخلف)[2].

فأنا أري -على غرار هذا الرأي- أن **محمد "ويقي" بن سيد الأمين**، كان أيضا قطبا جاذبا لرجال أسرته، إلى الحضرة الأم؛ حضرة أهل الشيخ سيدي المختار الكنتي، في أزواد؛ فهو من صفوة تلاميذِ الشيْخ الكبير: سيدي المختار الكنتي، وابْنِه: الشيخ سيدي مُحمد الخليفة، حيث كان يشَكِّلُ مع الشيْخ سيديَّ الأبْيَرْي، فرَسَيْ رِهانٍ، في تلك الحضْرة، علْما، وشِعْرا، وخُصوصِية لدَى مَشايخِهم هناك،[3]، وقد زوجه شيخه بزينب كريمته الوحيدة، ويقال: إن أهله أولاد

---

[1] - الجزء الخاص بكنته من **"الأخبار"**، ص 70.

[2] - نفسه، **ص**121.

[3]- فسيد البكاي بن الشيخ سيدي محمد، يعترف بأن الشيخ سيدي هو من يقرئه، وويقي هو من يذاكر له، انظر: هارون بن الشيخ سيدي: كتاب **الأخبار** (المدون)، ج1، تحقيق ونشر: باب بن هارون، ط2، نواكشوط، 1999م، ص 143، وهو نفسه يصفهما في مستهل رساله إليهما في الصفحة ذاتها: (إلى السيد المبجل، والأخ المفضل، ذي المجد المؤثل، والفخر المعجل والمؤجل، صاحب الأسرار: سيدي بن المختار، والأخ الأروع، والدواء الأنجع، ذي الشرف المتين المكين، والمجد الأصيل المبين: سيدي محمد بن سيدي الأمين).

بوسيف هنا ساقوا إليه في أزواد كثيرا من الإبل مهْرا لها، ويروى أنه ذات يوم- والعهدة على الراوي- أخبر الشيخ سيد محمد أنه **رأى في المنام** أن الشيخ متربع على **رأس شجرة** عظيمة عالية، وأن التلاميذ يحاولون الطلوع إليه في القمة، ولم يستطع الوصول إليه إلا هو، فكان تأويل رؤياه -في نظر الشيخ- أن **الشجرة الطريقة،** وصعودها هو **مدارج السالكين،** وأن **قمتها هي القطبانية،** ولا يشتركها اثنان، فبادره تلميذه محمد **"ويقي"** بن سيد الأمين، إذن أنا الذي سأموت، وبسط عليه رداءه، وفارق الحياة، والذي يهمنا من هذه الرواية العجائبية، هو إيحاؤها بأن هذا العبقري البوسيفي قد بلغ في الصوفية - حسب تأويل شيخه- أقصى ما يسعى إليه المريدون، ومع ذلك لم ينل من الشهرة العامة ما ناله، قرينه الشيخ سيدي، ولا حتى أخوه الأصغر **آدب،** وقد نظم سلسلة مشايخ الطريقة القادرية، نظما جيدا، يستهله:

الحمد لله الذي من اتصلْ ... بحبْله المتين لا بد وصَلْ
مبتدئا بغوْث هذا الوقْتِ ... مُعْتَصِما من مُوجِبات المَقْتِ
أَخَذَ شيْخُنا الإمامُ الأمْجَدُ ... غوْثُ الوُجودِ سيِّدي مُحمدُ
عن شيْخِه، والدِه: المُخْتارِ ... غوْثِ الورى، قطْب رَحى الأخيار

ويعلق عليه الأستاذ هارون بن الشيخ سيدي بقوله: (شرحه والدنا الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي شرحا نفيسا وعندنا نسخة من هذا النظم جيدة كتب الشيخ عند انتهائها ما لفظه: "استكتب هذا النظم لنفسه ثم لمن شاء الله بعده عبد ربه سيدي بن المختار بن الهيب كان الله للجميع بمنه وكرمه ولياً ونصيراً امين"[1].

وعن اشتراكها في درجة الخصوصية، يرد الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار، على ابنه وخليفته "بادي": (الشيخ سيدي المختار الصغير)، حين سأله عمن يجوز له أن يطلع على بعض = = الأسرار المكتوبة لديه، قائلا: (إنما ينسخه من إخوانك التلاميذ الخاص منهم، كرفيقيك، و"سيدي" و"محمد بن سيدي الأمين"، ومن في طبقتهم"، المصدر نفسه، ص 146.

[1]- هارون بن الشيخ سيدي: **الأخبار** "المدون" الجزء الخاص بكنتة، ص 95.

وقد تقاسم شعره التعلق بحضرة أشياخه في أزواد، والحنين إلى منطقة **"أگان"** جنة مواطن أهله، وربع عَزّتِهم وعِزَّتِهم. حيث يقول من الكامل:

صَبٌّ لنَأْيِكُمُ جَفَاهُ هُجُوعُهُ ... تُحْنَى عَلَى جَمْرِ الغَرَامِ ضُلُوعُه
أَبَدًا هَوَاكُمْ فِي سَوادِ فُؤادِهِ ... يَجْرِي، فَيْجِري بالدُّمُوعِ نَجِيعُهُ
ويَدُومُ كتْمانُ الغَرامِ، ودَمْعُهُ ... مُغْرًى بمَكْتُومِ الغَرَامِ يُذِيعُهُ
يَبْكِي عَلَى زمَنٍ تَقَضَّى بالمُنى ... بَيْنَ الأحِبَّةِ عامُهُ أسْبُوعُهُ
هُوَ كُلّهُ زَمَنُ الرَّبِيعِ: مَصِيفُهُ ... وخَرِيفُهُ وشتَاؤُهُ ورَبِيعُهُ
يا قَاتَلَ اللهُ النَّوَى فَهْي الَّتِي ... قد حَمَّلَتْنِي فوْقَ ما أسْطِيعُهُ
لم يَبْقَ مِنِّي غَيْر قلْبٍ هائمٍ ... وَحَشى لَهِيبُ لَظَى الغَرامِ ضَجِيعُهُ
وجَوانِحٌ تَنْفَضُّ منْ فَرْطِ الأسَى ... وقَرِيحُ جَفْنٍ، لَا تَجِفُّ دُمُوعُهُ
نَقَضَتْ عُرى صبْري الهُمومُ، ولم يزل ... قلْبي لفرْقتكمْ مَرُوعًا رُوعُهُ
حَالَ الأسَى مَا بَيْنَهُ وسُرُورَهُ ... وانْفَلَّ عنْه من العَزَاءِ جُمُوعُهُ
مُذْ حَالَ مَا بَيْنِي وبَيْنَ أحِبَّتِي ... ورُبُوعِهِمْ مِنْ أجْرعٍ وَرُبُوعُهُ
وشِفَاءُ ما بِي من طَوِيلِ بِعادِهِمْ ... رَمَلٌ يُقَرّبُهُمْ إلَيَّ سَرِيعُهُ
يَطْوِي بَسِيطَ البِيدِ دُونَ أحِبَّتِي ... يَعْلُو فُؤَادِي بالمَدِيدِ وُلُوعُهُ
إنْ رُمْتُ سلْوَانًا أتَى مُسْتَشْفِعًا ... مِن وُدِّهِمْ مَا لَا يُرَدُّ شَفِيعُهُ
لَوْلا التَّعَلُّلُ باللِّقَاءِ لَمَوْعِدٍ ... مُتَحَقّقٍ إنْجازُهُ ووُقُوعُهُ
مِنْ شيْخِنا، الغوْثِ، المُجَدِّدِ، مَنْ بِه ... رُشْدِي، ومَنْ أمْرِي إلَيْهِ جَمِيعُهُ
لَتَمَزَّقَتْ مِنِّي الحَشَى، ولَضَاقَ مِنْ ... حُزْنٍ، عَلَيَّ مِنَ الفَضَاءِ وَسِيعُهُ
فعَسَى يُتَمِّمُ بالتَّلَاقِي أنسَنَا ... رَبٌّ مُجِيبٌ للدُّعَاءِ سَمِيعُهُ
ويُقِرُّ نَظْمُ الشَّمْلِ عَيْنَيْ مُغْرَمٍ ... صَبٌّ لِنَأْيِكُمُ جَفَاهُ هُجُوعُهُ"

وله يخاطب شيخه الشيخ سيدي محمد الخليفة بن الشيخ سيدي المختار الكنتي في سينية من الطويل:

ألا ليت شعري، هل أُدَالُ على نفْسي وجُنْدِ الهوى المُغْوِي، وَشيْطانيَّ
وهل ظلماتُ القلْبِ تُكْشَفُ بالسنَى الرِّجْسِ؟

وهل حَرُّ نَارِ الفصْل، بالوصْل، ينطفي ... وهل وحْشةُ الإبْعادِ تُبْدَلُ بـالأُنْسِ؟
لـئنْ دامَ حـالي في الفسـاد كـما أرى ... لقـد خِبْـتُ في المَحْيَـا، فـما الظَّـنُّ
أرُوحُ، وأغْـدُو في البطالَـةِ جاهـدا ... بـــــــــــــــــالرَّمْسِ؟
أقـاموا جِـدَارا للسُّـلوكِ نَقَضْـتُهُ ... وصحْبيَّ جَـدُّوا في مُجَاهَـدَةِ الـنفْسِ
وأفْنَيْـتُ، في التسْـويفِ، عُمْـري ... فبِالكَنْزِ همْ فازُوا، ولم أحْظَ بـالفلْسِ
ســــــــــــــــــبَهْللا ... أرُوحَ، كما أغْدُو، وأغْدُو، كما أُمْسِـي
وعزْمـيَّ محْلـولٌ، ونـوْميَّ سَرْمَـدٌ ... ويوْميَّ خيْرٌ منْهُ، فـيما أرَى، أمْسِـي
ولـولا وُعـودٌ صـالحاتٌ تقـدَّمتْ ... قد أوْدعَها أسْتاذُنا الغوْثُ بـالطِّرْسِ
ورحْمَةُ موْلانـا التـي عمَّـتِ الـورى ... لأصبحْتُ، من رَوْحِ الإلهِ، على يأْسِ
فيـا هِمَّـة الغَـوْثِ المُعِينَـةِ دَارِكِـي ... رهينَ هوًى أهْـوَاهُ في هُـوَّةِ الـبخْسِ
إذا رامَ بـــالله العَـــلِيِّ تَعَلُّقـــا ... يُجاذبُـه مـا كـانَ بـالإلْفِ للعكْـسِ
ومـا ظـنَّ يوْمـا بعْـضَ أدْوائـهِ غَـدَا ... عـلَى ثِقَـةٍ إلا وأمْسَـى عـلى نُكْـسِ
فيـا شـيْخَنا أسْـتاذَنا ومَلاذَنـا ... ويا فارجَ الغُمَّى، ويَا كاشِفَ اللـبْسِ
أغثْنـي، ولا تنْسَـى الإغاثـةَ سـاعةً ... فمِـثْلِيَّ يُـرْدَى الآنَ إنْ غوثـهُ أنْسِـى
ورُضْ هذه النفْسَ الجَموحَ، وزَكِّهـا ... وكُنْ، دُونَ شيْطاني، وجُنْدِ الهوى، ترْسِي
وقوِّمْ جِدَارِي، يَا عِمادي، فقـدْ غَـدَا ... سُلُوكِي مُـنْقَضُّ الجِـدَارِ مِـنَ الأُسِّ
ورَبَّكَ فاسْـتوْهبْ عُبَيْـدَكَ ذَا الـذي ... قد اشْفَى، بما تجْنِي يَداهُ، على التعْسِ
أشَـيْخِيَّ نـيرانُ القطيعـةِ مَزَّقـتْ ... حَشايَ، ومنْها ازْدَدْتُ بُؤْسا، على بُؤْسِي
فهل من شرابٍ من مَشـاربكَ التـي ... شربتَ بها، من حضْرةِ القُدْسِ، بالطَّسِّ؟
وهل تُـدْرِكُ العبْـدَ الـمُسِيءَ عِنايـةٌ ... فتُبْلِغـهُ مـنْ كَفِّكُـمْ دَوْرَةُ الكـأْسِ
فإنْ... بالحِرْمانِ مَعْ وسْـع جُـودكمْ ... وتعْمـيمكمْ للخـيْر، في النّـدْب
وطُول عُكـوفي في وَريـفِ ظِلالكـمْ ... والحـــــــــــــــــبْسِ
نَعَمْ، عَاقنِي عن حاجتي عظْمُ زلَّتـي ... لَذلكَ أدْهَى ما يكـونُ مـن الـنحْسِ

يفــوز بــأعْلاقِ السَّــعَادَةِ والمُنَــى ... ويرْعَى رياضَ الأُنس، في حضْرة القُدْسِ
ومــن ظُلَــمِ الأَدْرَانِ يُبْــدِلُ قلْبَــه ... بشمْسٍ منَ العِرْفانِ تُزْرِي على الشمْسِ
ويخْــتم بالحُسْــنى لــه بعْــد عِيشــةٍ ... بِــذي الــدَّارِ، عــيْش الطيِّــبِ الأشْرَفِ
وثــمَّ صَــلاةٌ شُــفِّعَتْ بتَحِيَّــةٍ ... النــــــــــــــــــدْسِ
وآلٍ، وصــحْبٍ، بالصــوارمِ والقَنــا ... على المصطفى السامي به شرَفُ الخُمْسِ

فأجابه شيخه الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيد المختار، محتفظا بالبحر نفسه والروي:

هنيئا لكَ الإسْعادُ بالأنْسِ، والقُدْسِ ... ودامَ لكَ الإسْعافُ في الغَدِ، والأمْسِ
لئنْ راضَ مَنْ للنَّفْسِ هضْمًا غبَطْتَهُ ... بسوْطِ اخْتلاءٍ، قاهرا سَوْرَةَ النَّفْس
لقد رُضْتَها بالخمْسِ من غيْرِ ريبةٍ ... تحوش إلَى خمْسٍ، وتَظْلِفُ عنْ خَمْسِ
فإنْ شئْتَ سَدِّسْ فَتْلَها ولكمْ عنَي ... بخمْسٍ من اسْتَعْلَى علَى فَلَكِ الشَّمْسِ
فعند ابْتِسامِ الصُّبْحِ يَحْمَدُ ذُو السُّرَى ... سراه بــديجور المجنحــة الطلــس
وقــارعُ بــابِ المالِــكِ الحــقِّ فــائزٌ ... بما حوْلَه مــن وافرِ الــرِّبْح واللقْسِ
سيسقيكَ من صــفْوِ المعــارفِ خمْــرةً ... مُعَتَّقَــةً بالكــأسِ طــوْرا وبــالطَّسِّ
وأحْبُوكَ من كنْــز الوِصَــالِ بجــوْهرٍ ... نَفيسٍ به تسْمُو علَى مرْكــزِ الكــرْسي
ويغْبطــكَ الأُلى غبَطْــتَ وتكْتســي ... ملابــسَ أنْــواءِ المَهابــةِ والأنْــس
وترْتــع مــن روْضِ العِنايــةِ مَرْتَعــا ... تَنافَسَه قوْمٌ ثَــوَوا حضْــرةَ القُــدْسِ
وتَعْــرجَ مِعْراجــا بــه يَــدَنِّي الفَتــى ... ويرْقى إلى عرْسِ الخُروجِ من الحِسِّ
وتلْــثم أرْكــانَ الــدُّنُوِّ مــن الفَنــا ... وتشْــرب من صفْوِ المَحبــةِ بالكــأسِ
وتــذْبح أهْــداءَ العوائــد ناســكا ... بمَنْسِكِ تَنْسِيكِ منَ البُؤْسِ واليــأسِ
وتشْــهد أسْرارَ الشُّــهودِ مُعانِقــا ... عرائسَ كشْفٍ ما خَرَجْنَ عن العُرْسِ
فتُصْــبحَ مــن صِرْفِ المَواجِــدِ فَانيــا ... عــن الكــوْنِ محْفــوظَ الوجــودِ، كــما
وتمْلــك مُعْتــزا بعِــزَّة ذِي السَّــنى ... تُــــــــــــــــــــــمْسِي

فتخْفـق أعْـلامُ الخُصُـوص لوائحـا بمَشْهَدِ دُولابِ الخُصُوصِ بَلا طمْسِ
وتشْـهد أرْبـابَ البَصـائرِ شَمْسَـها وتفْصِـح بالتصْـديرِ أَلْسِـنَةُ الخُـرْسِ
فتشْـكر ذَا النّعْمَـى دَوامـا مُصَـلِّيا عـلى شـمْسِ أفْـلاكِ الهُـدَى، غُـرَّةِ
وآلٍ، وصحْبٍ، أَلْبَسُوا الـدِّينَ لَأْمَـةً الحُمْـــــــــــــــــس

وقد استقطب محمد "ويقي" إلى الحضرة الكنتية عمَّه:

المختار ولد أحمد، الذي لا ندري حقيقة هل هاجر ببدنه إلى الحضرة المختارية، الكنتية، لكننا متأكدون أن روحه وهِمَّته وقصيدَته يَمَّمَتْها، حيث قال من البسيط مادحا مشايخها:

أبْدَى منَ الشَّوْقِ ما قدْ كُنْتُ أُخْفِيهِ وكنْـتُ أزْعُـمَ أنْ لا شيْءَ يُبْدِيـهِ
أني مـررتُ عـلى ربْـع عهـدْتُ بـه أسْـماءَ، لا بـرِحَ الوسْـمِيُّ يسْـقيهِ
عهْـدِي بـه، وظِبَـاءُ الإنـس تَقْطُنُـه واليوم صارت ظباءُ الـوحْشِ تُحْيِيـهِ
كأنَّـه مـا مشـتْ -مَيْسَـا- مُنَعَّمَـةٌ جَيْدَانَةٌ، كقَضيـبٍ، نـاضِرٍ- فيـهِ
وَلا تَجَلْبَـبَ، بالأزْهـار، يانعـةً ولا تبسَّـمَ رَوْضٌ، فِي أعَالِيـهِ
جادتْ، عليْهِ-من الـرحمن- سـاريةٌ مـن الودائـقِ، تجْـرِي فِي نَواحِيـهِ
لمـا وقفـتُ، سَـوَاءَ الربْـع، مكتئبـا حـيرانَ، ذا زفـرات، فقْـدَ نادِيـهِ
آلى فـؤاديَّ: لا ينفـكُّ مُحْتَرِقًـا وأقْسَـمَ الجَفْـنُ: لا تَرْقَـى مَآقِيـهِ
نادٍ -به- أنستْ روحي، كما أنسـتْ روحُ المغيـث بمَـوْلاهُ، يُناجِيـهِ
خليفـة المصـطفى، حقـا، ووارثـه شيخ المشايخ، شمْس الـدين، مُحْيِيـهِ
حـازَ الوَلايَـةَ طـرًّا، في صِـباهُ، وقـدْ فـاق المشـايخَ، لا شَـيخٌ يُبَارِيـهِ
نَاجَى، وشَاهَدَ منْ يَهْوَى، بِلا حُجُبٍ فازْدادَ ما كانَ -بـالنَّجْوَى- يُقاسِـيهِ
أهْدَى أناسـا، وأوْدَى آخـرين، فـإنْ تعجـب؛ فـذاكَ كثـيرٌ، في مُرِيدِيـهِ
كهْفٌ من الخوْف، إذ من كل ناحيـةٍ يـأتي، وإذْ منـعَ الـذْ كـانَ يُجْرِيـهِ
كَـفُّ الغَـمَامِ، فهُـو بحْـرٌ، لـه مَـدَدٌ يجـري عـلى الخلـق؛ دانِيـهِ، ونائيـهِ

تبـــارك الله؛ لا تحصـــــى مناقبـــه عمَّتْ، على الكلِّ -بالنعْمَى- أيادِيهِ
ثـم الصـلاة، عـلى مـن هـو وَارِثُـهُ من لم يكن، في العلا، شخص يدانيـهِ

وهناك من العائلة نفسها: **أحمد بوه بن محمد بن أحمد بن الطالب اعمر بن خيري**، ابن أخي المختار بن مْحمد الآنف الذكر، حيث يقول (من البسيط) متعلقا بـ **"أگان"** موطنه، في المقدمة الآنفة الذكر، ومتخلصا إلى التشوق لحضرة أهل الشيخ سيد المختار:

يا بـرْدَ مـا هـبَّ مـن نحْـو الأحِبَّـاءِ من ناسمٍ دبَّ في صدْري وأحْشائي!
هبــتْ عــليَّ نُسـيْماتٌ.. تُجَـدِّدُ لي ذكْـرَ الأوِدَّا، فمــنْ لي بــالأوِدَّاء؟
واليومَ أرْغَبُ عنْ ذاكَ الشــرابِ إلَى ...مــن ديمــةٍ بالــشرْقِ هطْــلاءِ
شــاقتْ بوارقُهــا العيْنــيْنِ لائحــةً حوْلَ الخليفـةِ مِـنْ مسـقى المُلَيْسَـاءِ
هــو الخليفــةُ، لا ريْــبٌ، مُحَمَّــدُنا نجْـلُ الخليفـةِ مـن خـيْرِ البَراسـاءِ
كادتْ تميدُ، فأرْساها القواعِـدَ مـنْ ديــنِ الإلــهِ -تعَــالى- أيَّ إرْسـاء
وأضْرمتْ فرْقةُ الغوْثِ المُغيثِ لظَـى مـنْ كُـلِّ قلْـبٍ صـحيحِ الـوُدِّ فـرَّاء
فشـمّرَ الطِّـرْفَ عـنْ جِـدٍّ وبَادَرَهـا كالغيْــثِ، جــاءَ بــإبْرادٍ، وإطْفــاءِ
لاذتْ بِهِ النَّاسُ، إذْ ضاقَ الخِنَاقُ كما لاذت بشــاهقةٍ أبْنــاءُ عصْــماءِ
يا طِيبَ سَعْدِ بنِي الكُنْتِيِّ إذْ خَفَقـتْ أعْــلامُ رُتْبَتِــه مــنْ غــيْرِ إخْفَــاءِ!
ويا صَباحَةَ وجْه الـدَّهْرِ، إذْ بَزَغَـتْ أقْــمارُ طلْعَتِــه في كــلِّ ظلْــماءِ!
تبــاركَ الله، كــمْ أعْليْــت مُتَّضِــعا إلى مَقامَــةِ عِــزٍّ منْــكَ عَلْيَــاءِ!
وأزْمَـة خَرَّبَـتْ، عظْمُـى، وَداهِيـةً أزَلْتَ، عن مَعْشَـرِ الإسْلامِ، شنْعاءِ!
ومُعْضِلٍ من ذَوِي البَلْوى ومُشْكلةٍ غادرْتَهـا كبُـدُوِّ الصـبْح، عمْيـاءِ
ورِثْتَ ما لمْ يَرِثْ فيما مضــى بَشَــرٌ ونِلْـتَ مـا نِلْـتَ مَصْـحوبًا بـإعْلاءِ
فــما لِمَــا أنْــتَ مُعْطِيــه، ومَانِعُــه في الله، لله، مِــنْ مَنْــعٍ، وإعْطَــاءِ
ولا لِمَــا أنْــتَ مُدْنِيــه، ومُبْعِــدُه للبـابِ، أوْ عنْـه، مـن بُعْـدٍ، وإدْنَـاءِ

إنِّي إليْكَ -فخذ يا منتهي أملي- أشْكو، وأرْجو، منَ الرحْمن، إشْكائي
أشْكُو بِطَانَةَ سُوءٍ، مَنْ أُعِدُّ لَهَا أنتمْ، وحسْبي بكمْ من دفْع أسْوَاءِ
ولمْ أكُنْ لأرَى، مُذْ كنُت، مقتَضِيا مِنْ ذِي الخليقةِ، مَأمُولًا لحوْجاءِ
إلا إليْكمْ، ومِنْ راحاتِ غيْركمُ لا أستطيبُ -ولوْ ظمْآن- إسْقائي
إني لدانٍ، ولو نَاءٍ، أرَى ، فعسَى .....
أشهْى، وأطيْبُ تسْليم، كمَا أَرِجَتْ مَباسِمُ الروْضِ، مَمْطورًا بصحْراءِ
منِّي أسَلِّمُ أضعافَ السلام.. لمنْ يُنْمَى لأطْيَبِ أمَّاتٍ وآباءِ
مُحَمَّد، خيْرِ منْ حُزْنا ببعْثتِه عِزًّا، وأصْحَابِهِ الشُّمِّ الأعِزَّاءِ

وفي الاتجاه المقابل استقطب ويقي أيضا إلى حضرة الشيخ سيدي الانتشائي صديقه، و توأمه الروحي، والعلمي، بعض رموز أسرته؛ مثل:

محمد بن المختار بن احمد بن الطالب اعمر بن خير، الذي قال عنه الأستاذ هارون بن الشيخ سيدي: إنه (سكن مع الشيخ سيدي، وصحبه، وأحبَّه، ولما أراد المسير عنه قال فيه هذه القطعة الرائقة التي نظمها على الكامل:

عاشَ الفِرَاق حَلِيفَ عيْشٍ أنْكدِ واسْتبدَل... الاسيف من الدَّدِ
وغدا الغدُ الآتي عليه بما به وَعَدَ الأحِبَّةَ فِي غدٍ مِنْ مبْعَدِ
كمْ صَيَّرَ الأشْفاعَ أوْتارًا، وكمْ عيْشٍ هَنِيءٍ عاضَهُ بالأنْكَدِ
وكَم اقْتَضى بقضائه كوْنَ الفتى بِحبِيبِه في حيْرَةٍ وتَرَدُّدِ
إنَّ انْتظارَ قضائِهِ لأَحِبَّتي أفْنَى تَحَمُّلِيَ الأذَى، وَتَجَلُّدِي
وأَعَارَنِي سَفْعَ الجوانحِ، والحَشا بحَريقِ حُزْنٍ في الفؤادِ مُوَقَّدِ
وَلُزُومُ نفسي حَالَةً مَقْسومَةً لِتَفَكُّرٍ، وَتَنَمُّرٍ، وَتَنَهُّدِ
فَتَوَقُّعُ التفْريق أقْطعُ للحَشا وأمَرُّ مِنْ وقْع الفِراقِ المسْنِدِ
ولذا رفعتُ يدَ الدُّعاءِ عَلى غَدٍ ظرْفِ الفراقِ بقوْلِ أقْصَدِ مُنْشِدِ:

"لَا مَرْحَبًـا بِغَـدٍ، ولا أَهْـلا بـه إنْ كـانَ تفْريـقُ الأحِبَّـةِ في غَـدِ"[1]

ورغم أن الأستاذ **هارون** لم يصرح بتلمذته على **الشيخ سيدي**، وإنما قال: إنه "سكن معه، وصحبه، وأحبه"، فإنه عندما رجع **لأولاد بوسيف** كان **مرجعيتهم الروحية**، ومركز مشيختهم، وعليه تتلمذ ابنُ عمه: **عبد القادر (آدب)** بن سيد الأمين، قبل التحاقه **بالشيخ سيدي**، وعندما شعرت جماعة **أولاد بوسيف** بالفراغ الروحي، بعد وفاته، أرسلت إلى **الشيخ سيدي** تطلب منه أن يرسل إليهم تلميذه المقرب: **محمد بن أحمد الصغير البوسيفي**، معللين ملتمسهم بقولهم: (فإن الحاجة إليه شديدة لوفاة **أخيكم محمد بن المختار**، وغيره من أهل السياسة والأنوار... فاعزموا عليه بتعجيل المسير، وعدم التأخير، لنتخذه خلفا من السلف)[2]، وهنا أيضا لم يصفوه للشيخ سيدي إلا بأنه أخوه...

كما استقطب **"ويقي"** لهذه الحضرة شقيقه: **الشيخ بن سيدي الأمين**: الذي أورد له الأستاذ **هارون** رسالة وجهها **للشيخ سيدي** يُشَخِّصُ له فيها حالته الصحية ظاهرا وباطنا، سنُوردها لاحقا، ونكتفي هنا بـقصيدة يقول هارون إنه فيها يمدح شيخه أبا الأنوار الشيخ سيدي بن المختار، ويستعطفه ويتوجع على فراقه (البسيط):

يا ليت شِعْريَّ هل أَلْفَى عـلى عَجَـلِ أرَتِّبُ السيْرَ مـن قبْـلِ انْقِضـا أجَـلي
أطْـوي الفيـافي عـلى عَيْرَانَـةٍ أُجُـدٍ تسْخُو عَلَى الأيْن بالتقْريبِ والرَّمَـلِ
إلى الهُـمامِ إمـامِ الوقْـت سَـيِّدِنا "سِيديَّ" ملْجَئِنا في الحادثِ الجَلـلِ
جَـلَّاءُ أصْـداءِ مِـرْآة الفـؤاد إذا حِيكتْ عليْـه ثيـابُ الـرَّيْنِ بالزَّلـلِ
مَـنْ خَصَّـه الله بالتقْريـبِ كـلَّ أنًـى والعِلْم والجُود والإحْسـان والعَمَـلِ

[1]- مسودة الجزء الخاص بكنتة من **"الأخبار"**، ص 113، والكسر الموجود في وزن الشطر الثاني من المطلع موجود في المصدر.
[2]- نفسه، ص 119.

واخْتصَّــه بكــمالاتٍ، يضــيقُ بهــا ذرْعُ المقالــةِ، بالتفْصــيلِ، والجُمَــلِ
أوْلاهُ مــوْلاهُ نُــورا لــوْ بــدا لغــدا نورُ الشموس، له، والبدر، في خَجَلِ
ورُتْبــة لم تَــزُلْ تعْلــو بأخْمِصِــها ذُرَى الثُّرَيَّــاءِ واليَــافُوخَ مــنْ زُحَــلِ
حتــى أفــوزَ بحظِّــي مــن زِيارَتِــه ومــن مُجــاوَرَةٍ تشْــفي مــن العِلــلِ
وأرْتَــوِي بتَــحسِّي راحِ راحَتِــه كيْ أسْتريحَ مــن النقْصــانِ والخَلَــلِ
وتنْجَلِي ظُلَــمُ الأهْــواءِ عــنْ خَلَــدِي والبُعْد، لا زالَ كفُّ البُعْدِ في شَــلِلِ!
واعْلَمْ- وإنْ كنْتَ ذا عِلْــمٍ، وذَا نَبَــهٍ يا سَيِّدي- أنَّنَــا في الضِّــيقِ، والثقَــلِ
ولــيس ذلــك إلَّا مــنْ فِــراقكمُ فهْو المُكدِّرُ صــفْوَ العــيْش، يــا أمَلِي
لا يُمْسِكُ الرُّوحَ فينــا بَعْــدَ غيْبَتِكمْ إلا التَّعَلُّــلُ باللُّقيــا عــلى عَجَــلِ
وأن عبْــــدَك هــــذا... ثبَّطَــــه شؤم الذنوبِ، وفرْطُ العجْز والكسَلِ
فــادَّارَكِ الرَّمَــقَ البــاقي بنــا عَجِــلا فالعُودُ ذو اليبْس لا يَــخْضَرُّ بالبَلَــلِ
فــاللهَ نَسْــأَلُ أنْ نَحْظَــى بمُجْتَمَــعٍ بالبُرْدِ -مِنْ كلِّ مَــا سَرَّاءَ- مُشْــتَمِلِ
وحقــــقَ الله آمــــالا نُؤمِّلُهــــا فــيكمْ وحقَــقَّ مــا أمَّلْــتَ مــنْ أمَــلِ
فهُــوَ الــذي يَهَــبُ الإحْســانَ أجْمعَــهُ للعبْــدِ إنْ سَــالَه، أوْ هُــوَ لمْ يَسَــلِ
بجــاهِ خــيْر عِبــادِ الله كُلّهــم طــه المشــفع فينــا خــاتمِ الرُّسُــلِ
عليــه، والآلِ، والأصْــحابِ كُلِّهــم أزْكى الصلاةِ معَ الإبْكــار والأصُــلِ
مَــا حَقَّــقَ اللهُ آمــالا يُؤمِّلُهــا عبْــدٌ -مــن الــذنْب والتقْصــيرِ- في

أما **آدب الأخ الأصغر لـ "ويقي"**، ووريث سره وأسرار أخوته الآخرين، وعائلته جمعاء، فقد **استقطبته الحضرة القادرية الغربية** نفسها، فالتحق **بالشيخ سيدي**، وتصدَّرَ منها بإجازة نثرية، وأخرى شعرية، وله أيضا رسالة وجهها إلى شيخه، يلخص فيها أهم الأخلاق التي يطمح لكسب نقائضها الفاضلة على يد

[1] - مسودة الجزء الخاص بكتتة من **"الأخبار"**، ص 108- 109.

تربية شيخه، وقد ذيل إجازته الرسمية، بتزويده بالنصائح الضرورية للارتقاء الروحي إلى الأفق المرغوب، كما سنرى لاحقا.

أما **سيدي ولد آدب**، تلميذ والده، فقد ولى وجهه شطر **حضرة أهل الشيخ سيد المختار الكنتي**، في إقليم أزواد بجهورية مالي حاليا، حيث وجدنا له قصيدتين سجلتا رحلته لمنبع مرجعيته الروحية الصوفية هناك، إحداهما سماها -أو سميت-: **"الأنوارية"**، نسبة لـ "بَلَنْوَار" موقع الحضرة، وربما عنى بـ **"أبي الأنوار"** الشيخ نفسه، لأن إشعاعه العلمي والروحي والفكري طبَّقَ الآفاق، يستهلها بقوله: بقوله من البسيط:

زارتْـكَ.. وصْـلا.. بُعَيْـدَ الهجْـر ... أسْـمَاءُ.. أهْـلا بهـا مـن زائـرٍ زارا
أسْـــــــــــــــحارا ... ليْلا.. إلى نحْونـا- فِيفًـا.. وأوْعـارا
أهْـلا بهـا.. كيـف جابـتْ- وهْـيَ في ... بيْنَ الفَساطِيط، بلْ لا تَطْـرُق الجـارا
شَـــــــــــــــحَطٍ ... لَّما نـأتْ -لوْعَـةً- تُـذْكِي بـه النـارا
وكانَ عهْدي بهـا، والمَشْـيُ يُبْهِظُهـا ... حُزْنًا، وكنتُ -لدَى الهيْجاءِ- صبَّارا
هيَ التي غادرتْ - بالشَّجْوِ فِي خَلَدِي ... وكمْ لنا كـانَ وجْـهُ الـدَّهْرِ نضَّـارا!
وصرْتُ -مـن بعْـدِها- حـيْرانَ، ذا ... روْض الأماني -رَضِيَّ البال- أزهارا
جَـــــــــــــــــزَعٍ ... مَا كنْتُ -أسْمَا-كما تـذْرينَ- غـدّارا
مـا كـانَ أعْـذَبَ أيَّـامِ الوِصَـالِ لنـا ... آنستُ -من نحو ذي الأنوار- أنوارا
أجْنِي ثِمَارَ الهوَى، أيَّـامَ أقْطِـفُ مِـنْ ... وحيـث يَنْسَـى الغريـبُ الأهْـلَ..
أسْمَاءُ.. لا تحْسِبِي أنِّي هَجَرْتُـكِ.. لا ... والـــــــــــــــــدارا
ما القلبُ عنكمْ سَلا.. لكنْ تَـأَنَّسَ. ... ويَكْتَسـي مِـن ذُيـولِ النُّـورِ.....
أنْ ... رُدَّتْ شـــوَاهِدُها؛ آيًـــا، وآثـــارا
حيـثُ المُتَـيَّمُ يسْـلو هَمَّـهُ طرَبـا ... وأُعْطِيـتْ حقَّهـا، دِرْسًـا، وأذْكـارا
وحيـثُ كـلُّ امْـرِئٍ يَحْظَـى ببُغْيَتِـه ... وتستحيلُ البُحـورُ الضُّـخْمُ أنهـارا
وَحَيْثُ صِرَاتُ أَبَابِيلِ الْمُنَى وَقَعَتْ ... وَحَيْثُ ظُبْيُ سَرَاتِهِ فِي لَيْلِهِ سَارَا

وحيثُ يُنْقَى مَعِينُ القدْس من طرَقٍ منَ الصَّدَا، والطَّخَا، رَيْنا، وأكْدارا
وحيثُ أدْبرَ جيشُ البُطْلِ مُنْهَزِمًا مِنْ حيث أقبلَ جيْشُ الحقِّ جَرَّارا
وحيثُ أسْلمَ ذو الإغْواءِ مُعْتَقِدًا مِنْ بعْدما كانَ -بالإسْلامِ- مَكَّارا
وحيثُ لا تنْقضِي حيث المَكارم لوْ أفْنَيْتَ عُمْرَكَ.. واسْتعرْتَ أعْمارا

أما **القصيدة الثانية** فقد تبادلها مع **الشيخ سيد أعمر** بن الشيخ سيد محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي والد العالم **الشيخ باي**، صاحب **النوازل** المعروفة، حين هَمَّ بتوديعهم، والعودة لأهله ووطنه، فبادره مُضيفُه، يسْتبْقيه عندهم فترة أطول بقصيدة منها:

"سِيدِيَّ"، إنْ لمْ تُقِمْ طولَ الزمان بنا فامكثْ.. هُنَا عِنْدَنا.. عَامَيْنِ.. أو
أو نصْفَ عامٍ.. ولا نرْضَى بسيْرِكَ ذا عامٍ
فإنَّكمْ صفوةٌ، دون الأنام.. لنا ما لمْ تَعِدْنَا.. بُعَيْدَ السَّيرِ.. إلْماما
وجيرةٌ.. وعشيرٌ.. لا نُبَدِّلُه وإخوةٌ.. ويدٌ.. نقْضا.. وإبْراما

فأجابه سيديا ولد آدب محتفظا بوزن البسيط وروي الميم:

قلبي... لذكْر أحبَّاءٍ.. نأوْا.. هامَا بلْ كدْتُ.. مِنْ غيْرها.. لا أعْرفُ السَّاما
أحِبَّة.. منذ بانوا.. بنتُ عن جَلَدِي بل بنت..عن جسدي.. شوقا..
لما نأوا.. أضرموا.. في أضْلعيَّ.. وفي وتهيامٍ
بل ما سلوتكمُ.. في نعمة.. ولقد قلبي.. وقُودَ سَعير الشوْق.. إضْراما
إذ لا نعيم.. كآل الشيخ سيدنا الـ ـيسلي-الأحبة- طيبُ العيْش أقواما
أزْكي البَرِيَّةِ أعْراقًا.. وَأعْدَلِهِمْ ـمختار.. من أوْضَحَ الإبْهامَ إلْهاما
بلى، وأجودهمْ كفًّا، وأقْدَمِهمْ قَسْما.. وأفْضَلِ مَنْ صلَّى، وَمَنْ صاما

هذا مع أن له رسالة إلى الشيخ سيدي باب، يعتذر له عن وشاية بلغته عنه، ويعده بقافية بديعة ضاق عنها الصك حينئذ، ولم نجدها حتى الآن.

أما أخواه: محمد لحوار، والشيخ أحمد فالأول منهما اتخذ وجهة علمية، واستهوته محاظر "**أجيجبه**" المشهورة، بينما يقول الأستاذ **هارون** بن الشيخ سيدي (وقفت **للشيخ أحمد بن آدب** على رسالة، وأظنها موجهة إلى **الوالد الشيخ سيدي باب** لتأخر وفاته عنه وهذا نصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله حق حمده صلى وسلم على نبيه وجنده والسلام عليكم على قدر علو مقامكم ومجده إلى **شيخنا الشيخ سيدي** من العبد الفقير الحقير الكسير الأسير: **أحمد بن سيدي عبد القادر** بن سيد الأمين.

أما بعد، سَيِّدِي، لازالت تهشُّ إليكمْ النِّعَم الجليلة، ويبشُّ ويَتَنَسَّمُ نحْوكمْ نسيمُ السعْد ويتجسم، ويتوسَّم وجُوهكمْ ناظرُ الودِّ ويتبسَّم،

فاعلم، سَيِّدي -وإنْ كنْتَ الغَنِيَّ عن الإعلام، بما أطلعكَ الله عليه من خفايا الأنام- أنِّي، وإنْ عاقت العوائقُ عن القدُوم، صَحَّحْتُ الزيارةَ بالمَعاني دونَ الرُّسُوم.

ومن أجْل ذلك أطلُب منكمْ الجمْع بيْن الضّرَّتيْن، والقِرَانَ بيْنَ الحَسَنَتَيْن، والحُصولَ على كِلْتا السعادَتَيْن، والفوْزَ بكلا الفَخْريْن والعِزَّتَيْن، ما لا يُوصلُ إليه، ولا يُحْصل عليه، إلا بمحْض فضْلِ الله وعِنايَته، وبركة التعلق بخاصَّتِه من أهْل وُدِّهِ وولايَتِه.

ثم ليكنْ في كريم عِلْمِكَ أيها الأكْرمُ الأرْحم، الأرفق، الأَرْأَف الأعطف الأشفق، أني طرحتُ نفْسي بين يديْكَ، وألقيْت مَقاليدَ أمُوري إليْك، إذ (النَّبِيُّ أوْلى بالمؤمنين من أنفسهم)، هذا، ومُرَادِي لَفْتَةٌ صَمَدِيَّة، ممَّنْ قُدِّسَ في أزَل الأزليَّة، برحْمة الرحْمانية... تنيرُ صدْرِي، وتُنِيفُ قدْري، وتبلِّغني من كلِّ خيْر، ما دريْتُ وما لا أدْري.

الرياحي:

البُعْـدُ لـيس لـه عـلَى أهْـلِ الـولا حُكْـم، وهـلْ أمْـر الولايـة يُعقـلُ
مـا عـاقَ أصْـحَمَةَ النجـاشيَّ بُعْـدُهُ عـنْ أنْ تـوَلَّاهُ الرَّسُـولُ الأفْضَـلُ

وقد قلت:

أغِيثـوا، مَـنْ لكـمْ عِـزٌّ وجَـاهُ قـريحَ القلْـب، شـوْقكمُ وَجَـاهُ
تُقلِّبُـه الهُمُـومُ حَلِيـفَ شَـوْقٍ يُصَـيِّرُهُ كمَسْـلوبٍ نَجَـاهُ
سَـأَلْتُ وِصـالَكمْ ربًّـا رحِـيمًا كـريمًا، لا يُخَيِّـبُ مَـنْ رَجَـاهُ

والسلام عليكم ما تعاقبتْ حرَكاتُ العالمِ وسكناتُه
أيُّها الغائبونَ عنَّا، وإنْ كنتْم لِقَلْبِي بذكركمْ جِيرَانـا[1]

ومثلما **استقطب محمد ويقي بن سيد الأمين** إلى **هذه الحضرة** صفوة من **أبناء عمومته**، إضافة إلى أخيه لأم: **محمد بن أحمد انبسيف**، وشقيقيه: **الشيخ، وعبد القادر (آدب)**، فإن أخاهم الآخر: **أحمد بن سيد الأمين** – كما يقول الأستاذ هارون –: (**قدم على الشيخ سيدي**، في **أثر أخيه عبد القادر**، فأخذ عنه وله ابن سماه باسمه **سيدي**، ويلقب "**الدي**" ولسيدي هذا ابنه العالم، المعروف عند الناس بـ **مْحمد بن الدي**.....ولـ مْحمد بن الدي كثير من الحكايات مع الوالد **الشيخ سيدي باب**، وكان يعدُّه ممن أخذ عنه طريق التصوف، وانتفع به، وسياتي شيء من أخباره معه في ترجمته إن شاء الله)[2].

ومن الجدير بالذكر أن عدد من استقطبته هذه الحضرة من أولاد بوسيف، لا يتسع المقام لاستقصائه، حيث اقتصرتُ هنا على الدائرة الأقرب نسبا وأدبا من أهل آدب، موضوع البحث، وقد لخص الأستاذ هارون، بقوله:

---

[1]– مسودة الجزء الخاص بكنتة من "**الأخبار**"، ص 105.
[2]– نفسه، ص 106.

(وكان **أولاد بسيف** هؤلاء يرسلون **للشيخ سيدي** المعروف مع الشيخ أحمد بن **المختار بن الزوين**، ويقولون: إنهم معه "كإبل الشرگ إما الزاگر، وإما الگابل" ومعنى ذلك أنهم على حالتين معه، إما تلاميذه، أو محبوه، وبتتبع ما مضى من الصلات الطيبة يظهر مصداق ما قالوا)[1].

[1]- مسودة الجزء الخاص بكنتة من "**الأخبار**"، ص 134.

سادســـا

مشيخة أهل آدب
جدل الوهب والكسب

وهنا – طبعا– ينتهي بنا المَطَافُ إلى **"آدبَّ" (عبد القادر)** (1820 – 1875م) الشقيق الأصْغر لأبناء **سيد الأمين (ت1822م) بن مْحمد بن الطالب اعمر بن خيري**، سَلِيلِ هاتيك الدوْحة العرفانية، الراسخةِ الجُذور، الفيْنَانَةِ الفُرُوعِ، حيْث لم تزل تفاعلات هذه السلالات العلمية والصوفية، المعرفية، تتكثف، حتى انتهت إلى وريثها الشرعي **"آدب"**، الذي كان أخوه الأكبر: مْحمد "ويقي" بن سيد الأمين، يقول لشيْخِيْهِ في الحضْرة المُخْتَارِيةِ الكنْتية بـ "أزواد"، إنَّه لا يدْرسُ العلومَ، ولا التربيةَ الصُّوفيةَ، لنفْسه، وإنَّما يخدمُ بالنِّيَابةِ عن شقيقِه الأصْغر الذي بَقِيَ وحيدا يعْتني بعائلتهم، في الوقْتِ الذي تفرَّقَ من حوْلِه، كلُّ أقاربه – طلبًا للمَعرفةِ والعِرْفان– باتجاه أهْل الشيخ سيدي المختار في الشرْق، ثم أهْل الشيخ سيدي– بعد وفاة ويقي– في الغرْب، ومهما كانت صعوبة تصديق هذا المنطق، في عصرنا الراهن، ومهما يكن استعداد ذهنية المتلقي المعاصر لإنكاره، فهم يجزمون بأن الله قد اسْتجابَ لرغْبة مْحمد "ويْقِي" في أخِيه آدبَّ؛ حيث ورِثَ – منْ لَدُنْهُ– سِرَّ أسْرتِه العِلْمِيّ، والرُّوحِيّ، والشِّعْريّ، فكسَفَتْ شُهْرتُه إشْعاعَ أخَوَيْه، وأبِيه، وأعْمامه، العُلَمَاء الشُّعَراء، رغم أنه قد ترَكَه أبوه، وهو أصغر أبنائه، في بيئة حرْبية، ذاتِ ظروف حياتية صعْبة، غيْر مُوَاتِية لطلَبِ العِلْم، وهذا ما يَسْتَحْضِرُهُ ابْنُه سيدي محمد "سِيدِيَّ" رِوَايَةً عنْ والِدِه، حينَ يَرُدُّ علَى أخِيهِ":

محمد لحْوار"، عنْدما اسْتَأْذَنَه في الرحْلة لطلَبِ العِلْم، فقال له، في تَضاعيفِ رِسالتِه الجَوابِية: "فتْح القهَّار في الرَّدِّ على محمد لحْوار":

(**وأمَّا ما ذكرتَ** من الْتزامنا الرحلة في طلْب العِلْم، خلَفا لسَلَفٍ، فلا نُطيلُ فيه، ولكن:

خذْ ما تـراهُ ودعْ شـيْئا سـمعْتَ بـه في طلْعَةِ البدْر ما يُغْنيكَ عـن زُحَـلِ

إذْ قد **أدركت والدَنا** رضي الله عنه، فقد حدَّثَني -رضْوانُ الله عليْه- غَيْرَ ما مرَّة -وأنتَ شاهدٌ- أنَّه نَشأ فيما ينْشأ فيه مِثْلُه من أطفال أهْل الحرْب، من مُعاناةِ المَعِيشةِ وكدِّ العِيالِ، في شظَفِ العيْش، وشُغْلِ البَال، مُوَافَقَةَ مَسِيرِ إخْوَتِه طَلَبَةً، فمَا زالَ كذلك حتى بَلَغَ، وهو على تلك الحالة، لم يكتسبْ عِلْمًا، ولمْ يُطالعْ...قال: بلغت مبلغ الرجال، وليس لي إلا التمسك بآية: "واتقوا الله ويعلمكم الله"، واعتماد حديث: "من عَمِلَ بما عَلِمَ أوْرَثهُ الله عِلْمَ ما لمْ يعلم"، مع علو الهمة، ونفوذ العزْمة... قال: وفكرت ليلة في صحة قوله صلى الله عليه وسلم: لو تعلقت همة المؤمن بالثريا لنالها؛ فوضعتْ بين يدي، وقال رضي الله عنه وأرضاه، وجعل نصيبنا منه أوفر نصيب وأوفاه، وذلك من صدق التوجه، مع العمل بمقتضى العلم، كائنا ما كان، كما قيل:

لكـــنَّ سِرَّ الله في صـــدْق الطلـــبْ كمْ رِيعَ في أصْـحابه مَـن العَجَـبْ!

وقال: فلما توفيتْ الوالدة -رحمها الله- أعملتُ الرِّحْلة إلى الشيْخ الكامل: الشيخ سيدي، ما شاء الله، فأجازني، وشيَّعني إلى الأهل).

ورغم أن **آدب** لم تكنْ له رِحْلَةٌ في طلَبِ العِلْم، غيْر رِحْلتِه هذه إلى حضْرَةِ الشيْخ سيدي، والتي لم تتعد حوالي ستة أشهر فقط، فقد تكللت بإجازته، 1265هـ-1848م، **"في الأوراد القادرية، والأحزاب والتوجيهات المحمدية والمختارية، أخذا وعطاءً وروايةً وإرْواءً، بالشرْط المألوف والسَّنَنِ المَعْروف خَلَفًا عن سَلَفٍ...**

حيث يقول: **"وأجزتُه أيْضا فِيما تَحَصَّلْتْ وتتحصل فيه أهْلِيَتُه من العلوم الشرْعية أصُولِها وفرُوعِها ومَقاصِدِها ووسائِلِها على نحْوِ مَا أذِنَ لِي وأجازَنِي فيهَا شيْخُنا الخليفةُ سيدي مُحمد..."**.

ونظرا لأنَّ مثْلَ هذه الإجازاتِ لمْ يكنْ المَشايخُ العُلماءُ الأتْقياءُ يمْنحونَها جُزافا، كما تُمْنَحُ اليوْمَ الشَّهَادَاتُ العُليا، فقدْ أوْضَحَ الشيخُ سيديَّ المُرْتَكَزَاتِ التي أسَّسَ عليْها حُكْمَه بالأهْلِيَّةِ المُزْدَوجَةِ للمُرِيدِ المُجَازِ في المَعَارِفِ الصُّوفية، والعُلوم الشرْعِية مُطلقا:

"وإنَّما أذنتُ له وأجزْتُ له؛ لِمَا لاحَ لِي فيه من لَوائحِ الصلاحِية للتقديم، ولِمَا شمَمْتُ فيه من روائحِ الخُصوصية المُزْوجَةِ بالصِّدْق والتسْلِيم".

وهذا نص **إجازة الشيخ سيدي لعبد القادر(أدب)**:

"**بسم الله الرحمن الرحيم**، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، الحمد لله مسبب الأسباب، ومعتق الرقاب، ومختص الأمة المحمدية بفضيلة الإسناد والإعراب والانتساب، والصلاة والسلام على النبي الأمي الأوَّاه الأواب، وعلى آله وأزواجه وذريته وسائر الأصحاب، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم العرض والحساب.

هذا، وليعلم الواقف على المكتوب، من أرباب القلوب، أني -أيها الكاتب المنتمي آخرا، إن شاء الله تعالى- قد أذنتُ **وأجزْتُ** للابن الرشيد، والمريد السعيد، والسيد الحميد: **سيدي عبد القادر بن سيد الأمين بن الطالب اعمر بن خير**، وقانا الله -وإياه- من كل مكروه وضير، في الأوراد القادرية، والأحزاب والتوجهات المحمدية والمختارية، أخْذَا وإعْطاء، وروايةً وإرواءً، بالشرط المألوف، والسَّنَن المعروف، خلفا عن سلف من صلاح النية والإخلاص في منحها ومنعها، ومن الاستخارة لله تعالى والاستشارة، واختبار جِدِّ الطالب وصدقه في طلبه، وصلاحه لمطلوبه كُلًّا أوْ بعْضا.

وأجَزْتُه أيْضا فيما تحصَّلتْ، وتَتَحَصَّلُ فيه أهْلِيَّتُه مِنَ **العُلوم الشرْعيَّةِ**؛ أُصُولِها وفُرُوعِها، وَمَقاصِدها ووسائلها، على نحْو ما أذِنَ لِي **وأَجَازَني فيه شيخُنا الخليفةُ** سيدي محمد رضي الله عنه، ثم **ابْنُه وخُليفته** -من بعده- سيدي المختار، **وأخواه** التقيَّان النقِيَّان: سيدي حبيب الله، وسيدي أعمر ابْنا شيخِنا الكبيرِ سيدي المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي ثم الوافي رضي الله عن الجميع وأرْضاه، وجعَلنا به ممن توَلَّاه، وارتضاه، بالسَّنَدِ المَتَّصِلِ المُسلْسل، إلى أشرف الرسل، صلى الله عليه وسلم كل الصلاة والسلام وعلى اله وصحبه القادة الهداة الأعلام.

وإنَّما أذِنْتُ له وأجَزْتُه لما لاحَ لِي فيه من لوائح الصَّلَاحِيَّةِ للتقْدير، ولما شَممْتُ فيه من روائح الخُصوصِيَّةِ المَمْزُوجَةِ بالصدْق والتسْليم والتبْجيل لجناب الشَّيْخُوخَةِ والتعَظيم، ورجاءَ أنْ يكونَ ذلك عوْنا على إشادَة مَعَالِمِ الدين، وزيادة في عُدَّةِ حزْبِه المُرْشِدينَ والمُسْتَرْشِدين.

واللهَ تعالى نسأله أنْ يكتبه في ديوان خواصِّهِ، وأنْ يُجْلِسَه على مَنابِر قُرْبِه وَمَنَاصِّهِ، وأنْ يُعينَه، ولا يُبِينَه، ويُثْبِتَ يَقينَه، ويُحَقِّقَ تمْكينَه، إنَّه القريبُ المُجيبُ، لدعوة المُضْطَرّ المُنيب.

وكتبَ -مُجيزًا وآذِنًا ومُنيبا، لأواسِطِ شهْر الله الحرام المُحَرَّم، **مُفْتَتَحَ سَنَةِ خمس وستين بعد المائتين والألف**- عبْدُ ربِّه، الراجي منه غفرانْ ذنْبِه، وسِتْرِ عيْبِه: **سِيدِيَّ بن المُختار بن الهيْب الانْتِشائِيِّ**، كانَ الله للجميع بمَنِّهِ وكرَمِه وليًّا ونصيرا، اللهم امين"[1].

وقد أصبح **عبد القادر "آدب"، شيخا** في فضائه الجغرافي الاجتماعي الواسع، حيث كان -حسب روايتنا- من ضمن **مريديه: ثلاثة** من **أبناء باب أحمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي**، هم: **سيد محمد** الملقب بـ**"أچّ"**، و**عابدين**،

[1]- هارون بن الشيخ سيدي: مصدر سابق، ص 99- 100.

و**البكاي**، و يبدو أن "**أجَّ**" كان صديقا لآدب، مشيدا به ، وببعض كراماته التي تروى عنه، حيث يقول في ميمية له من الطويل:

لقد نامَ من أمْسى خَلِيًّا مِنَ الهَوَى فبتُّ كئيبَ القلب، لستُ بنائم
وأرَّقَنِي تذْكارُ بيضٍ أوَانِسٍ مَرَابِضَ للشيْطانِ، غُرِّ المَباسم
مبيداتِ صِيدٍ، لياتِ مَعاطِفٍ كرياتِ أحْسابٍ، حِسَانٍ نَوَاعِم
إذا مَا أُسِمْنَ الفُحْشَ، ظَلْنَ غَواضبا نشاصا، وخوْفًا من رُكوبِ الجَرَائمِ
تمتَّعْتُ أزْمانا، هُنَّ مُجاورًا فَبِنَّ، وَخفْض العيْشِ ليْس بدائِمِ
فجالسْتُ أقْوَامًا، كأنِّيَ أعْجَمٌ لديْهِمْ، وهمْ -عنْدِي- كمثْل الأعاجِمِ
...تمسي، وتصبح في نقى مع الوحْشِ، ترْعَى في مِخاضٍ سَوائمِ
لعَمْرِي لئِنْ أمْسيْتُ عنْهُنَّ نائيا يُشَوِّقُنِي -للوصْل- نوْحُ الحَمائمِ
فيا رُبَّ يوْمٍ قدْ ركبْتُ نَجَائبًا هِجانا، كِرامًا، من هِجانٍ، كرائمِ
أجُوبُ عليْها كلَّ خرْقاءَ هلْلَهٍ وتخْدِي بِدَوِّ الأرْض وَخْدَ النعائمِ
مَعِي كلُّ مِفْضَالِ المَوَاهبِ يَنْتمِي إلى عبْد شمْسٍ، أو إلى القرْم هاشمِ
إذا مَا دَعَا الدَّاعِي ليوْم كريهةٍ أتَى مُسْتَعِدًّا لانْصِدَاعِ الجَمَاجِمِ
وإنْ هَمَّ بالمَعْرُوفِ أمْضَاهُ، لم يَمِلْ إلى عَذْلِ عَذَّالٍ، ولا لوْمِ لائمِ
تُنِيطُ الذِي أدْنَتْهُ منْهُ وسِيلةٌ منَ العِزِّ، فعْلا، فوْق نجْمِ النَّعائم
وتاهَ على كلِّ الأنَامِ ونَاوَلَتْ يَداهُ الثرَيَّا، قاعدًا غيْر قائمِ

أما **سيدي (1855 - 1895م)** الولد البكر لـ **آدب** فقد قلَّدَ والدَه وشيخَه الوحيد: **آدب**، في الاعتقاد بجدوائية العلم اللدني/ الوهْبي، أكثر من العلم الكسْبي، متبعا إياه في عدم الرحلة الخارجية للدراسة، والاكتفاء الذاتي بقاعدتي: الآية الكريمة: (واتَّقوا اللهَ ويعلمكم الله)، والأثر(مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ أوْرَثَهُ اللهُ عِلمَ مَالَمْ يَعْلَمْ)، إضافة إلى رضى والديه، ففي إطار رده على أخيه **محمد لحوار**، الراغب في الرحلة طلبا للعلم، يحاول ثنيه عن ذلك بضرب المثل له

بوالدهم آدب، حسب ما تقدم، ثم بتقديم **نفسه له مثلا آخر**، يمكن أن يعتدَّ به، فيقول: (**أما أنا** فليس الخَبَرُ كالعِيان، وليس الصادق كمن حدَّث ببهْتان، فقد شاهدتَ مَوارد أمْري ومَصادِره، وذلك أني نشأتُ زمن الصبُوَّة راغبا في التغرُّب، والابتعاد في التطلُّب، فجعلَ والدُنا -رضي الله عنه- يسوسني بسياسة عجيبة، ويَعِدُني بالمساعدة على ذلك، وينشر لي أحوال طلَبَةِ العِلْمِ في جميع المَسالك، مع اطِّرَاحِي بين يديه،.... والعمل بمقتضى ما يشير به ويقضيه، حتى أطْلَعَنِي الله -من فضْله- عليه، وقصرتُ همَّتي على الشوق إلى ما لديْه من علم ، فوصلت إلى ما إليه من فضل الله وصلت، مما لا أُنْكِرُه امتثالا لأمْر الله،... ولا أذْكُرُه بيْن يديْ من قلَّدَ هواه، وتولَّاه، "فظُنَّ خيْرا ولا تَسْأَلْ عنِ الخَبَرِ"[1]، "ﭽ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﰘ ﰙ ﰚ ﰛ ﰜ ﰝ ﰞ ﰟ ﰠ ﰡ ﰢ ﰣ ﰤ ﰥ ﰦ ﰧ ﰨ ﰩ ﰪ ﰫ ﰬ ﰭ ﰮ ﰯ ﰰ ﰱ ﰲ ﰳ ﰴ ﰵ ﰶ ﰷ ﰸ ﰹ ﰺ ﰻ ﰼ ﰽ ﰾ ﰿ ﱀ ﱁ ﱂ ﱃ ﱄ ﱅ ﱆ ﱇ ﱈ ﱉ ﱊ ﱋ ﱌ ﱍ ﱎ ﱏ ﱐ ﱑ ﱒ ﱓ ﱔ ﱕ ﱖ ﱗ ﱘ ﱙ ﱚ ﱛ ﱜ ﱝ ﱞ ﱟ ﱠ ﱡ ﱢ ﱣ ﱤ ﱥ ﱦ ﱧ ﱨ ﱩ ﱪ ﱫ ﱬ ﱭ ﱮ ﱯ ﱰ ﱱ ﱲ ﱳ ﱴ ﱵ ﱶ ﱷ ﱸ ﱹ ﱺ ﱻ ﱼ ﱽ ﱾ ﱿ ﲀ ﲁ ﲂ ﲃ ﲄ ﲅ ﲆ ﲇ ﲈ ﲉ ﲊ ﲋ ﲌ ﲍ ﲎ ﲏ ﲐ ﲑ ﲒ ﲓ ﲔ ﲕ ﲖ ﲗ ﲘ ﲙ ﲚ ﲛ ﲜ ﲝ ﲞ ﲟ ﲠ ﲡ ﲢ ﲣ ﲤ ﲥ ﲦ ﲧ ﲨ ﲩ ﲪ ﲫ ﲬ ﲭ ﲮ ﲯ ﲰ ﲱ ﲲ ﲳ ﲴ ﲵ ﲶ ﲷ ﲸ ﲹ ﲺ ﲻ ﲼ ﲽ ﲾ ﲿ ﳀ ﳁ ﳂ ﳃ ﳄ ﳅ ﳆ ﳇ ﳈ ﳉ ﳊ ﳋ ﳌ ﳍ ﳎ ﳏ ﳐ ﳑ ﳒ ﳓ ﳔ ﳕ ﳖ ﳗ ﳘ ﳙ ﳚ ﳛ ﳜ ﳝ ﳞ ﳟ ﳠ ﳡ ﳢ ﳣ ﳤ ﳥ ﳦ ﳧ ﳨ ﳩ ﳪ ﳫ ﳬ ﳭ ﳮ ﳯ ﳰ ﳱ ﳲ ﳳ ﳴ ﳵ ﳶ ﳷ ﳸ ﳹ ﳺ ﳻ ﳼ ﳽ ﳾ ﳿ ﴀ ﴁ ﴂ ﴃ ﴄ ﴅ ﴆ ﴇ ﴈ ﴉ ﴊ ﴋ ﴌ ﴍ ﴎ ﴏ ﴐ ﴑ ﴒ ﴓ ﴔ ﴕ ﴖ ﴗ ﴘ ﴙ ﴚ ﴛ ﴜ ﴝ ﴞ ﴟ ﴠ ﴡ ﴢ ﴣ ﴤ ﴥ ﴦ ﴧ ﴨ ﴩ ﴪ ﴫ ﴬ ﴭ ﴮ ﴯ ﴰ ﴱ ﴲ ﴳ ﴴ ﴵ ﴶ ﴷ ﴸ ﴹ ﴺ ﴻ ﴼ ﴽ ﴾ ﴿ ﵀ ﵁ ﵂ ﵃ ﵄ ﵅ ﵆ ﵇ ﵈ ﵉ ﵊ ﵋ ﵌ ﵍ ﵎ ﵏ ﵐ ﵑ ﵒ ﵓ ﵔ ﵕ ﵖ ﵗ ﵘ ﵙ ﵚ ﵛ ﵜ ﵝ ﵞ ﵟ ﵠ ﵡ ﵢ ﵣ ﵤ ﵥ ﵦ ﵧ ﵨ ﵩ ﵪ ﵫ ﵬ ﵭ ﵮ ﵯ ﵰ ﵱ ﵲ ﵳ ﵴ ﵵ ﵶ ﵷ ﵸ ﵹ ﵺ ﵻ ﵼ ﵽ ﵾ ﵿ ﶀ ﶁ ﶂ ﶃ ﶄ ﶅ ﶆ ﶇ ﶈ ﶉ ﶊ ﶋ ﶌ ﶍ ﶎ ﶏ ﶐ ﶑ ﶒ ﶓ ﶔ ﶕ ﶖ ﶗ ﶘ ﶙ ﶚ ﶛ ﶜ ﶝ ﶞ ﶟ ﶠ ﶡ ﶢ ﶣ ﶤ ﶥ ﶦ ﶧ ﶨ ﶩ ﶪ ﶫ ﶬ ﶭ ﶮ ﶯ ﶰ ﶱ ﶲ ﶳ ﶴ ﶵ ﶶ ﶷ ﶸ ﶹ ﶺ ﶻ ﶼ ﶽ ﶾ ﶿ ﷀ ﷁ ﷂ ﷃ ﷄ ﷅ ﷆ ﷇ ﷈ ﷉ ﷊ ﷋ ﷌ ﷍ ﷎ ﷏ ﷐ ﷑ ﷒ ﷓ ﷔ ﷕ ﷖ ﷗ ﷘ ﷙ ﷚ ﷛ ﷜ ﷝ ﷞ ﷟ ﷠ ﷡ ﷢ ﷣ ﷤ ﷥ ﷦ ﷧ ﷨ ﷩ ﷪ ﷫ ﷬ ﷭ ﷮ ﷯ ﷰ ﷱ ﷲ ﷳ ﷴ ﷵ ﷶ ﷷ ﷸ ﷹ ﷺ ﷻ ﷼ ﷽ ﷾

وحتى أخوه **محمد الحوار** الذي كان عالِما وشاعرًا وفارسا وسيِّدا، فإنه كان -أيضا- هو الوحيد من **أبناء آدبَّ**، الذي رحَل في طلب العلْم، وتخرَّجَ - مُتبَحِّرًا فِيه- من مَحْظَرَتَيْ: "الكحْلاء والصفْراء"[1]، في أحْياء قبيلة "أجيجبه"، بمنطقة البراكنة، دون أنْ يَعْتَمِدَ على "الوَهْبِ" (العِلْمِ اللَّدُنِّيِّ)، المزْعوم توارُثهم له، من أبِيهم، الذي نالَ ما نالَ من مَكانتِه الرُّوحِية والعِلْمِيةُ، دون كسْبٍ مَعْرِفِيٍّ مَشْهُود، ولكن هنا تستمر المُفارَقة التي تُعَزِّزُ غلبة المَنْحَى الوهبي، على الكسبي في هذه الأسرة، مهما كان التشكيك مشروعا، فإذا كان **"آدبَّ"**، **غطَّتْ شُهْرَتُه على صِيتِ إِخْوَتِه وَأَبْنَاء عُمُومَتِه**، رغْم أنَّه الوحيدُ -بيْنهم- الذي لمْ يرْتحِلْ فِي طلَبِ العِلْم، **فكذلك ابْنَاهُ: سِيدِيَّ، والشيخ أحمد، غطَّتْ شُهْرتُهما على شُهْرة أخيهما: مُحمد الحوار**، رغْم أنَّه تفرَّدَ -دونهما- برحْلة عِلْمية مُظَفَّرة، وقد حاولَ **شَقِيقُهُ الأَكْبَرُ: سِيدِّيَّ** إقناعَه، بالرضى بطريقة الأسْرة، ضاربا له المَثَلَ على جَدْواها، بما ناله والدُهما: **"آدبَّ"**، وبما نالَه **"سِيدِيَّ"** نفسه، من مَواهبَ **"لَدُنِّيَّةٍ"**، مُؤلِّفا في ذلك رسالته الآنفة الذكر، التي سمَّاها: "فتْح القهَّار في الرَّدِّ على محمد لحْوار".

وهنا يلاحظ إلحاح **سيدي بن آدب** على **"فتح القهار"** و**"فتح الجليل"**، في عنواني رسالتين له، تأسيا- ربما- بالشيخ سيدي المختار في عنوان كتابه: "فتح الوهاب"، وهنا أيضا لا بد أن نشير إلى أن مفهوم هذا **"الفتح"** وهذا **"الوهب"**، لا يعني التواكل، والتكاسل، وعدم السعي لكسْب العلوم والعارف مطلقا، فهذا **سيدي بن آدب** - في **"فتح القهار"**- يخاطب أخاه **محمد لحوار**، شارحا **جوهر رؤيته**، القائمة على اشتراط اقتران العلم المرغوب **بالتقوى والإخلاص لله** في الطالب والمطلوب:

[1]- اسم لمحظرتين، كانا في تلك المنطقة منذ حوالي ثلاثة قرون، أخذتا لونيهما من لوني الخيمة الكحلاء المنسوجة من صوف الضأن، الخيمة الصفراء المنسوجة من وبر الأبل. وقد تخرج منهما خيرة علماء البلد.

"فإذَا تقرَّرَ هذا عِنْدَكَ- أَيَّدَكَ اللهُ وأرْشَدَكَ- عَلِمْتَ أنَّ العِلْمَ مَرْغُوبٌ فيه، مع وُجُوبِ طَلَبِهِ من العاقِلِ والنبيه، لكن أيْنَ سُحْنُون؟[1]، كما قالَ المَجْنُون، إذ لا بُدَّ للطريق من دَلِيلٍ ماهرٍ وإمام، وأوَّلُ ما يُعامَل به الأستاذُ الانْقيادُ لأمْرِه والاسْتِسْلام، و"الرَّعِيَّةُ على دِينِ المَلِكِ" خَطَأً أوْ صَوَاب؛ چ ں ڻ ڻ ڻ ڻ ۀ ہ ہ ہ ھ ھچ[2]، وقد عَلِمْتَ أنَّ مَن اتَّصَلَ بوَاصِلٍ وَصَل، وأنَّ مَن اتَّصَلَ بمُنْقَطِعٍ بانَ وانْفَصَل، إذْ "العَالِمُ- كما في الحَديثِ -كالسفينة، إنْ صَلحتْ نَجَتْ وأنْجَت، وإنْ فسَدتْ هلكتْ وأهْلَكَت".

وهكذا يكون جوهر هذه الرؤية هو استمداد المعارف من الله، والاعتماد عليه، أولا وأخيرا، مما يعني أن **فتح الله ووهبه**-إذا تحقق- تتنزل البركات في الفهم، والعلم، فيكون الطالب يكتسب المعارف الكثيرة بمجهود أقل مما يبذله غيره من طلاب العلوم الكادِّينَ، الجادِّين، وقد حاول كل من **آدب** وابنه **سيدي أن** يؤصلا ذلك بالآية القرآنية القائلة بأن من يتقي الله يعلمه، وبالحديث النبوي المؤكِّد أن العمل بما عُلِمَ، يورث علم مالم يُعلم، وهنا نرى عبد القادر (**آدب**) رب البيت يتضرع إلى الله:

أمْوْلاي، جُدْ لي بالمعـارف، والتقـى وعِلْـمٍ، نَفُـوعٍ، صَـفْوُهُ لـن يُكَـدّرا

وقد لاحظت في مستهلِّ رسالته إلى شيخه: الشيخ سيدي بن المختار الهيبة الأنتشائي، استلهامه لطائفة معينة من أسماء الله الحسنى، غير بعيدة عن المدار "الوهبي" الإلهي، فهو بعد وصفه لنفسه بعيوب كثيرة، يُشَبِّهُ كثرتها واستحالة حصرها، بنقيضها من وفرة فضائل شيخه، وما يحويه، "من العُلوم والحُلوم،

---

[1]- يشير بذلك إلى قصة تروي أن سيدا صالحا يسمى سحنون كان يرقي المجانين بكلمات قليلة سمعها شخص آخر فحفظها ورقى بها مجنونا فلم تعط نتيجة، فسال لماذا نفس الكلمات تشفى عندما يستخدمها سحنون ولا تؤثر إذا استخدمها هو؟ فقال له المجنون الذي رقاه: **ينقصك فَمُ سحنون**. فأصبح فم سحنون مثلا يضرب لأي شيء ينقصه السبب الذي يؤثر به.

[2]- **قرآن كريم،** سور ة البقرة، الآية: 166.

والحِكَم والمَعارف والعَوارف والمَكارم والفضائل والمَغانم والفواضل وغير ذلك، بمَحْصُور... وعسى الحميد الشكور المُلْهِمُ المَنَّاح، الرحمن الرحيم السماح، الحليم الصبور، أنْ يجْعلني- بجاهكم العظيم عنده- ممنْ توَلَّاهُ واصْطفاهُ، وارْتَضَاهُ فأرْضاهُ واجْتباه، وأنْ يجعلَ تعَلُّقي- في جميع أمُوري- به، لا بسواه".

ثم يؤكد إيمانه العميق بقدرة الله على تغيير ما بذاته من عيوب، وتعويضها بنقائضها من الفضائل المرغوبة، فيستدرك قائلا:

(**لكنَّ الله يزيلُ الأشياءَ من مَجالِها**، بخَلْقِ أضْدادِها في مَحَالِّها، فيزيل نارَ الشُّحِّ ويُخْمِدُها بمَعِين الإيمان...

وكذلك الغَضَبُ يَخْلقُ مَكانَه الحِلْمَ، **ويخلقُ العِلْمَ مَكانَ الجَهْلِ**، والنُّورَ مكانَ الظلْمة والرِّقَّةَ مكانَ القسْوَة، إلى هَلُمَّ جَرّا.

وقلَّما كانَ هذا إلا بواسِطَةِ نَبِيٍّ، أو وَلِيّ، وقد لجأتُ إلى الله، ثم إليكم متوجِّها بكم إلى أشياخكم، ثمَّ بكمْ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بكم إلى الله **أنْ يفتحَ علي في العِلْمِ والحِلْمِ والحِكْمَةِ**).

وحتى ابنه **محمد لحْوار** الذي تفرَّدَ -بين إخوته- بمجهود مشهود في العلم الكسبي، وقام برحلة مُظَفَّرَة في طلبه، تخرَّجَ بعْدَها من "محظرَتي": "الصَّفْرَة والكَحْلَة"، فإنه لم يتخل عن نصيبه من استمداد العلم الوهبي من الله، حيث يقول:

وأوْلِني- منكَ- أسرارَ العلومِ، بـلا كدٍّ، ولا تَعَـبٍ، يـا وَاهِـبَ الطَّلَـبِ

وحتى أخوه الأكبر: **سيدي** بن **آدب**، في الوقت الذي كان يحاول إقناعه، بعدم جدوائية الرحلة في طلب العلم السائد في عصره، الذي يراه- في مُجْمَلِه- منزوع الدسم، أي التقوى والإخلاص، يُجَلِّيهِ بصفة "ذي **الفُتُوحَاتِ** و**الأدَب**"، حين يخاطبه في مستهلِّ رسالته إليه: "**فتح القهار** في الرد على **محمد لحوار**"، قائلا:

"إلى أخيه الشقيق، وخُلاصَةِ نبْعَةِ أبيه الأحْنَى الشفيق، ذِي **الفُتُوحَاتِ والأدَب**، السَّيِّد **محمد** بن النَّسَب، بالسلام العام، والرحْمة والبَرَكة والإكْرام، وبالوَصِيَّة لنفْسي ولكَ بتقْوَى الله التي هي رأسُ الأمْر ومِلَاكُه".

ومَهْمَا يكن؛ فآثار **آدب**، وابنه **سيدي** و**أخويه** تنضح بمعارفهما الضافية في القرآن، والحديث، والفقه، وأصوله....، وبقدراتهما البيانية العالية في بقايا أدبياتهم الشعرية والنثرية.

أما **الشيخ أحمد الابن الأصغر لـ آدب** فقد أدرك -هو الآخر- أن "من يتقي الله البطْلْ"[1]، فأخذ نصيبه وافيا من ميراث **جدلية الكسب والوهب** في تكوين أسرة **أهل آدب**، في العلم، حيث لم تكن له -كسلفه- أي رحلة خارجية في طلب العلم، أو التصوف، ورغم ذلك فإن **آثاره الباقية يستفاد منها أنه متمكن من ناصية الأسلوب الأدبي** الرفيع، الذي يعد بصمة فنية مميزة لنثر **المدرسة الكنتية الشرقية والغربية**، شأنه في شأن في ذلك شأن أخيه **سيدي**، وأبيهما **آدب**، وجل سلالة **أهل مْحمد ولد الطالب أعمر** بن خيري **البوسيفيين**، كما أن بعض آثاره توحي **بمكانته الفقهية العلمية**، أما من الناحية الصوفية فسرعان ما أصبح **مرجعية الطريقة القادرية** داخل فضاء كنتة الغربيين، حيث كان تلاميذه من أبناء الشيخ سيدي المختار الكنتي -حسب روايتنا-:

1- الشيخ بن عابدين بن باب أحمد بن الشيخ سيدي المختار، وأولاده الثلاثة:

أ- باب أحمد بن الشيخ بن عابدين.

ب- البكاي بن الشيخ بن عابدين.

ج- السبقه بن الشيخ بن عابدين.

[1]- شطر من لامية عمرو بن الوردي:

اعتـزل ذكـر الغـواني والغـزلْ وقـل الفصـل، وجانـب مـن هـزلْ

ومن أبناء الشيخ سيدي محمد الخليفة بن الشيخ سيدي المختار الكنتي كان من تلاميذه:

2- الشيخ (الديه) بن باب بن الشيخ سيد مُحمد الكنتي بن الشيخ سيد محمد.

ومن أولاد بوسيف:

3- الجيلي بن أحمد انبسيف في تكانت

4- حم بن سيدي بن آدب، في البراكنة

5- "خُ" بن سيد أحمد بن سيد الأمين زعيم أولاد بوسيف في الحوض الشرقي.

ومن أولاد سيد حيبل في تكانت:

6- زعيمهم العام: أحمد بن سيد امحمد بن أحمد

7- عمار بن مُحمد بن محمد لحمد

8- أخوه: الشيخ بن مُحمد

ومن أولاد التناكية (أولاد سيد حيبل):

9- حمود بن لمرابط.

10- أخوه محمد المختار بن لمرابط.

ومن أولاد سيدي الوافي في تكانت أيضا:

11- زعيمهم: "**أَجَّ**" بن أحمد بن محمد محمود بن أمينوه.

ومن المتغبرين:

12- عبد الله بن شماد

ومن أهل الأزرق:

13- الشيخ بن أنَّ زعيم جماعته

ومن زعماء أولاد الناصر في الحوض الغربي:

13- اعمر بن حبيب

14- عثمان بن بكار

أما من **ناحية الزعامة السياسية،** فقد اقتضت هذه المركزية الروحية، شبه الشاملة، المتشعبة الامتدادات في جُلِّ الفضاءات الكنتية وغير الكنتية، قياداتها وجماعاتها، أن **يتفرد الشيخ أحمد بن آدب بكتابٍ/ "كنَّاشٍ" في دائرة المجرية بتكانت،** خاص **بأهل آدب،** لا يتبعون فيه لأي قيادة كنتية، ولا حتى قيادة فخذهم: أولاد بوسيف، خضرهم، وبيضهم، أحرى الأفخاذ الكنتية الأخرى التي قلما يوجد لها زعيم إلا وهو مريد **للشيخ أحمد بن آدب...**

وقد تأسست هذه **المشيخة "الآدبِّيَّة" السياسية المستقلة،** بعدما نزح **الشيخ أحمد** من منطقة **آفطوط** في البراكنة، إثر خلافات بيْنِيَّة داخل **أولاد بوسيف** هناك، اشتد حوله تقاطبُها، ولم يستطع احتواءها، **فهاجر إلى تكانت** بحوالي خمسين خيمة، وحتى **أهل آدب** الذين بقوا في آفطوط بقيادة تلميذه وابن أخيه: **حم بن سيدي ولد آدب،** كانوا تابعين **لسجل مشيخة الشيخ أحمد** في دائرة المجرية، لا للسجلات الإدارية البوسيفية في البراكنة.

سابعـــا

أهل آدب
جدلية النسب والأدب

إذا كانت **المدرسة الكنتية** عموما، و**المختارية** خصوصا، معروفة لدى الباحثين المتخصصين، **بروعة أسلوبها الأدبي الراقي**، وإشراق ديباجتها البيانية الفخمة، فقد رأينا، **لأهل سيد الأمين بن محمد بن الطالب اعمر** بن خيري **البوسيفيين**، نصيبا وافرا من **ميراث تلك المدرسة الكنتية الأدبية الروحية**، في شعرها ونثرها معا، عبَّرَتْ عنه، قصائدهم، ورسائلهم، وإذا كان اكتساب مهارات الشعر ليس بالشيء المُسْتَصْعَب على أبْناء البدْو من العرب والمستعربين، ولا سيما بالنسبة للمتعلمين، فإن الدارس لن يعرف -بالبداهة- متى تمرَّسَ هؤلاء البُداةُ الرُّحَلُ المُحَاربُون بتقنيات الكتابة النثرية، وتشربوا مهارات التعبير بها، وفق ذلك المستوى الأدبي العالي الجودة، فحين كان رجال هذه الفصيلة البوسيفية في منطقة "آگان" منطقة التجاذُب والتقاطُب بين حضرتي أهل شيخ سيد المختار الكنتي في الشرق، وأهل الشيخ سيدي في الغرب، كان هؤلاء يخاطبون شيوخ الحضرتين بشعرية طافحة، ونثرية مُحْكَمَة، ومادام توارث الشعر في هذه السلالة جذورا، وفروعا، عبْر القرون، قد برهنَ على أطروحته بحْثٌ

مستقل لي حول هذا الموضوع[1]، فإن أمثلة توارث النثر -عبر **جدلية النسب والأدب**- واجد أمثلته المُبَرْهِنَة عليه أيضا؛ فهذا **الشيخ بن سيدي الأمين البوسيفي - شقيق آدب**- وصل إلى حضرة **الشيخ سيدي**، من مسقط رأسه، وهو -على ما يبدو- مسْتَوْفٍ لشروط الكتابة الأدبية، حيث فاتح **الشيخ سيدي**، مَقْدَمَه عليه، ملتمسا منه وصفة شافية لأمراضه الروحية، وحتى النفسية، والبدنية، بأسلوب أدبي رفيع، بمقاييس عصره، نجح بدقة متناهية في تشخيص أحواله الظاهرة والباطنة، يقول فيه:

(**بسم الله** الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم، الحمد لله مفرج الكروب، وغفار الذنوب، وستار العيوب، والصلاة والسلام على المجتبى المحبوب، وآله وصحبه الطَّهَرَة الجيوب، صلاة تؤذن بنيل المرغوب، وتأمين رعب المرعوب، وتنفيس الكرب عن المكروب، **هذا وإنه إلى مشكي الشكاة**... ومحط رحال العفاة، شيخنا وملجئنا...، ومُنَشِّئِنَا: **سيدي بن المختار**، وقاه الله شر طوارق الليل والنهار، **بسلام** يسامي عالي قدره الرفيع، ويضاهي سرعة بلوغه إليه وصول نائله البسيط الكامل الطويل الوافر السريع، لمستجديه...، الفقير، والمنتسب لإرادته تفاؤلا الكسير الأسير: الشيخ بن الأمين بن محمد بن الطالب اعمر بين خيري، صانه الله بكم من موجبات المقت والضير.

موجبه إعلامكم، وإن كنتم أعلم، وبالمصالح أدْرَى وأفْهم، بما أعلمكم علَّام الغيوب وألهم، أنَّ عبيدكم هذا ترادفت أوجاله، وعظم بلباله، لما أصابه من **الأمراض الظاهرة والباطنة**، والعِلل المُزْمِنة القاطنة، التي يضيق الصك عن تفصيلها، ويعجز البنان عن كتْبِها وتحصيلها.

---

[1]- أدي ولد آدب: **أهل آدب: سلالة الشعر و"بيت القصيد"**، سلسلة التراث الكنتي البوسيفي (أدبيات أهل آدب) (2)، ط1، 2020م، مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، مراكش المغرب.

منها: أنه دام عليه خفقان القلب والميد، وأن جسمه كالصوفة المنفوشة، لا يقدر على حر، ولا قر – وكلاهما– إن جاء– يتخلل جسْمَه، كما يتخلل الماءُ الصوفةَ المنْفوشة، إذا ألقيتْ فيه.

ومنها: أنه يجد – في بعْض الأحْوال– ضيْق نفَسٍ؛ صورته: أنَّ النَّفَسَ في حال صعوده لا يكاد يتناهى حتى تكاد الروحُ تسيلُ معَهُ، وكذلك في حالةِ هبوطِه.

ومنها: أنَّه إذا وَجَدَ بعْضَ الحُضُور – سَاعَةً– فِي ذِكْرٍ، أو تلاوة، يعْتريهِ خفَقَانٌ وضعْفٌ عَقِبَ ذلك، تكادُ نفْسُه تذهبُ لهما، ثمَّ لا يَقْدِرُ على الذِّكْرِ، بَعْدَ ذلك، حتى تمضيَ مُدَّة.

ومنها: الوجَلُ في بعْض الأوْقات، الذي لا يُعْرَفُ له سبب.

ومنها: كثْرَة الهمِّ والاهْتِمام والخَطَرَاتِ الرَّدِيَّة، والوساوس المُرْدِيَّة، وحديثُ النفْس، وغير ذلك، مما يَعْجزُ عن إحصائه الضمير، فضْلا عن غيره، ولا ينبئك مثل خبير. والسلام عليكم ما دامت سكنات العالم وحركاتُه، وتمت لقاصدكم رغباتُه، وانصرفت عنه هناته وسيئاتُه، ما تروْنه من سوء الخط ناشئ عن بعض ما ذكر"[1].

وكما فاتحه بالأدب نثرا، ودعه بالأدب شعرا؛ حيث قال قصيدة سبق ذكرها، فيها (يمدح شيخه أبا الأنوار **الشيخ سيدي بن المختار**، ويستعطفه ويتوجع على فراقه)، كما قال الأستاذ هارون بن الشيخ سيدي[2].

أما أخوه **عبد القادر الملقب آدب** الذي اعتبره الأستاذ هارون: "من كبراء تلاميذ الشيخ سيدي"[3] ، فرغم أنه ، ولم يقم قبله بأي رحلة علمية، فقد –شرح

---

[1]– هارون بن الشيخ سيدي: مسودة جزء من "**الأخبار**"، ص107–108.

[2]– نفسه، ص 108.

[3]– نفسه، ص 95.

هو الآخر- **حاله، بالأسلوب الأدبي** الرفيع الدقيق، مثلما فعل أخوه من قبل، **فكتب إلى شيخه**:

(**الحمد لله** الذي وسعتْ رحمتُه المُلْكَ كلَّه والمَلكُوت، وجعل من عباده خاصة يتصرفون في الكون، بُيِّضَتْ منهم القلوبُ، ولهم فيها رهَبُوت، وجَعَل مُخالفتهم سبب الشقاء والطرد - أعاذنا الله منها بحفظه- والجَبَرُوت، واصطفى - من أيد لامتثال- أمرهم، وجعل لهم في قلبه (كذا!) - في البعد والقرب- رغَبُوت.

على من وَرِثُوا مقامَه الأسْنى، من مُخَدَّرَات الغُيوبِ والكرامات والحُسْنى، وعلى آله أعلام الأمة وغُرَرِها، وعلى صحابَتِه حُمَاةِ الدين، وخاصَّةِ الخاصةِ ودُرَرِها.

هذا، وإنَّه إلى الغَوْث الكامل، وبحْرِ العلم والحكمة الشامل، مَنْ شيَّدَ بناءَ الدين بعْدَ هَدِّ أيْدي البِدَعِ لِبنَائِه، وأضاءَ شُموسَ العِلْم بعْدَ انطباق ظُلمات الجهْل على ضيائه.

مَهْبط تَنَزُّلات الحقائق، ومَسْقطِ رُؤوسِ مُخَدَّرَاتِ الرَّقائق، السَّيِّدِ الفاضل، والإمام العادل، النازل من دَرَجات الكمالِ في أعْلى المَنازِل، قطب الوجود، ونُخْبَةِ الموجود، واسِطَة عقد الأخيار، سيدنا وملاذنا ووسيلتنا إلى ربنا: سِيدِيَّ بن المختار، قضى الله له ولنا به جميع الأوطار، من غير توقف ولا استئْخار.

بسلامٍ يُسالِمُه التبْجيل والاحترام، ويتسَلَّمُ سُلامَاهُ الرضْوانَ والمَبَرَّةَ والاكرام، ما دخلَ أهلُ الجنة فراديسهم بسلامٍ وإسْلام، وعانقوا حُورَ الخُصُوصِيّة بغبطة واحتشام.

وتحية أشْهى من حسْوِ المُدام، وأشْفَى منْ بُرْءِ الآلام، وأزْهَى من مُلاءمَة القَراطيس للأقْلام، عنْد تعَذُّرِ المُشافَهَةِ والمُكافَحَةِ بالكلام، **ممَّن طغتْ به نفسُه** فألقتْه في مَهَاوِي الضلال، وغَلَبَه شَيْطانُه فصَدَفَ به عن طريق الرِّجال أهْل

الكمال، ومَلَكَهُ **هَوَاهُ**، فأدْخَلَه فيما يُسْخِطُ عليْه مَوْلاهُ، وتمَكَّنَ منْ قلبه **حُبُّ الدُّنْيَا** فامْتَلأَ من العُجْب، والسمعة، والرِّيَاء، وغير ذلك وغير... ممَّا لا يُحيطُ به إلا العليمُ الخَبير، العَبَيْدُ الفقيرُ الحقير، الذي هو في أيدي ما تقدمَ ذِكْرُه من الأعْداء أسير: **عبد القادر بن سيد الأمين**، خلَّصَه الله بجاهكم من أسْر النفس، والهوى، والدنيا، واللعين.

أمَّا بَعْدُ، سَيِّدِي، سَدَّدَ الله بتسْديدكمْ الأنام، وسَوَّدَ بسُؤْددِ سِيادتكم الأتباعَ والأشياعَ والأحْشام، وأشاد بإشادة مشيدِ عِزِّكم فسْطاط أهْل الإسلام والإسلام، ورفَعَ منْ شرَفِكم الباذخِ راياتِ الخُصُوصِيَّةِ والأعْلام، وأقامَ بقوَام تقويمكمْ قامةَ الشريعة والأحْكام، وَمَلأَ بإنافَة مُنِيفِ ذِكْرِكمْ المَلأَ الأعْلى والأقطارَ والمَهَامِهَ والآكام، وأكرمكمْ برَوْح مزيدِ الاحترام، وريْحان ازْدياد التوْقير والاسْتسلام.

فاعلم، وإنْ كنتَ الغنِيَّ عن الإعْلام، بما أفاضَ عليكَ من أسرارِ غُيوبِه المَلِكُ العَلَّام، أنَّ هذا العُبَيْدَ المذكور، في أول المسْطور، غريقٌ -منَ المَهالِكِ- في بُحور، يغرق فيها النيلُ والمُحيطُ المَسْجُور، وقد مكرتْ به **نَفْسُه** فألقتْه في مَهاوِي الغرور.

وقد اجتمع فيه من العُيوب والذنوب، وعِظام الخُطوب، ما تضيقُ عن حصْرِ عُشْرِ العُشْرِ عنْ بعْض بعْضِه الرسُوم والكُتب والمَنْظُوم والمَنْثُور، كما ليس ما تحْويه من العُلوم والحُلوم، والحِكَم والمَعارف والعَوارف والمَكارم والفضائل والمَغانم والفواضل وغير ذلك، بمَحْصُور، وليس له - سَيِّدِي- لجميع ما ذكَرَ - بعْدَ الرحيم الغَفور- إلا همَّتُكم ورِعايتكم، والتوسُّل بكمْ إليْه في الحقير والخطير من الأمور، وعسى الحميد الشكور المُلْهِمُ المَنَّاح، الرحمن الرحيم السماح، الحليم الصبور، أنْ يجْعلني - بجاهكم العظيم عنده- ممنْ توَلَّاهُ واصْطفاهُ، وارْتَضَاهُ فأرْضاهُ واجْتباه، وأنْ يجعلَ تعَلُّقي- في جميع أمُوري- به، لا بسواه، وأنْ يُتْحِفَني بنظرْة مِنْكمْ تُزيلُ عنِّي جميعَ الضَّنَى، وأنَالَ بها جميعَ المُنَى، الَّتِي ليس لي من التسبُّبِ فيها إلا أن أتَمَنَّى، وأكون بها من اللذين سبقت لهم منْه الحُسْنى، وأنْ

يجعَلني بها من أهْل المَقام الأسنَى، ولا يقطعَني عنه لكثرة جِناياتي فأكونَ- إذ ذاك- من الذين غُبِنُوا غبْنا، انقطعوا به عن الألى سارتْ بهم مَطايا الهِمَم حتى ألْقَوْا عصا التَّسْيَارِ بفِنَاءِ مَنْ لهمْ به عن جميع من سواه أغْني، ويجذبني بها اليه جذبة أفنى فيه بها عن المكونات، ثم أفنى ثم أفني، إنه القادر على ذلك والمرجو فيما هنالك"[1].

ثم شرع في تعداد المشاكل الروحية الخُلُقِية التي يشكو منها، ويطمح لاستبدالها بنقائضها من الفضائل.

وقد رد عليه الشيخ سيدي بإجازته إياه، مشفوعة ببعض الوصفات الشافية لبعض ما شَخَّصَه له من حاجاته الروحية، وكما كانت الإجازةُ مُزْدوجةً في مَضْمُونِها، كانتْ مُزْدَوجةً أيْضا في أسْلوبها، حيث شفَعَ الشيخُ سيديَّ نثْرَه، بشِعْرِه، مُخاطبا تِلْميذَه عبد القادر "آدبَّ":

لكَ الخيرُ يُرْجَى.. والمُنَى.. والأمَانُ ... وفيكَ -لَمكنُونِ الخُصُوصِ- بَيَانُ
براهينُ من ناسُوتِ ذاتِكَ أنْبَأتْ ... بِمَا -يَنْطَوِي فِي سَرِّها- ويُصَانُ
بأنَّك مَيْمُونٌ.. وسَعْدُكَ طالِعٌ ... وربْحُكَ -في الدَّارَيْن- فيهِ ضَمَانُ
لتبشر.. وطِبْ نفْسا، بما لَكَ.. ولْيكنْ ... إلى هذه الآلاءِ.. منكَ.. عِيَانُ
فإنَّ شُهودَ المَنِّ أعْظَمُ رُتْبَةٍ ... كَمَا نَصَّهُ أهْلُ التُّقى.. وأبانُوا

ولعلّ **اخْتيارَ الشيخ سيديَّ للشعْر** وسيلةً إضافيةً لتوْديعِ **"آدبَّ"**، كانَ فيه **إجَازَةٌ لشاعِريَّتِهِ**، التي لا نجِدُ دليلا على أنَّه أبَانَ عنْها خِلالَ فتْرةِ تلْمَذَتِه عليْه، لكنَّها ربما كانت من "بَراهينِ نَاسُوتِه" التِي قرَأَ الشيْخ - ببصيرتِه الوقَّادَة- " ما يْنْطَوِي في غيْبِها ويُصَانُ".. حيث كان **"آدبَّ"** سليلَ **الشاعِريَّةِ الكنْتِيةِ** عُموما، وخُلاصةَ شاعريَّةِ **"أوْلاد بوسيف الخضْر"** خصوصا، ومُلتَقى روافِدِ شاعِريةِ بَيْتَيْ **أهل أحمد بن الطالب أعمر** بن خيري، أعمامه، **وأهل سيدي الأمين بن أحمد** بن

[1]- هارون بن الشيخ سيدي: نفسه، ص 95- 97.

الطالب أعمر، أبيه وأخوته، وحتى شاعرية أخْواله أهل **"أحمد أشَنان"**[1] البُوسيفيِيْن أيْضا.

فبَعْد هذا كلِّه لا غرَابَة أنْ يكونَ **"آدبَّ" عَمُودَ بيْتِ الشِّعْرِ"** الأعْرَق في هذه السُّلَالَة الكنتية، دون مُنازِع، وأنْ يُورثَ أبناءَه وأحْفادَه -حتى الآن- سِرَّ القوافي، لدرجةِ أنَّه كان "يُحَنِّكُ" أبناءَه بالشعْر، بدَلَ التمْر واللبَنِ المَألوفيْن عند الآخرين، حيث كان كُلَّما وُلِدَ له ابْنٌ يصْدَعُ في أُذْنِه اليُمْنَى، بتكبيراتِ الأذَانِ، وتَعاويذِ القُرْآنِ، ويُدَنْدِنُ في أُذْنِه اليُسْرَى أبياتا شِعْرِيَّةً يرْتجِلُها في حقِّ ذلك الوَلِيد، لتنْدَسَّ نفحاتُ الإيمان، وإيقاعات الأوْزان، مع أوَّلِ قَطرات لِبَانِ الأمِّ، التِي كانَ أخَوَاها شاعريْن، فعِنْدَما **رُزِقَ ابْنَه البِكْرَ (سيدي محمد) لقَّبَه "سِيدِيَّ"** تَيَمُّنًا باسْم الشيخ سِيدِيَّ، ورغم أننا لمْ نعْثرْ على الشعْر الذي اسْتقبله به، فقد كان شاعرَ كنْتة الغرْبيين بإجْمَاع، وكان فارسًا، وقاضيا، وكانَ قلَمَ "البَيان والتبْيين" لدَى جَماعتِه، ولِسَانها الناطِقَ باسْمها.

ثم رُزِقَ بابْنه **"الشيخ أحمد"** فتنبَّأَ لهُ شعْريا، بما سَيَكونُ له من زَعَامَةٍ سَيَاسِيَّةٍ، ومشْيَخة روحية، ومَكانة علْمِية وشعْرية، وكأنّ **"آدَبَّ"** يُقَلِّدُ شيْخَه **الشيْخ سيدِيَّ**، فِي قِرَاءَتِه لِمَا ينْطوِي ويُصَانُ في غيْبِ النَّاسُوتِ؛ فيقول:

إليكَ تُـضْرَبُ أكْبَادُ العَطامِـــيسِ يَـا شـيْخُ أحْمَـد نِـبْرَاسُ النَّبَـاريسِ
تَسْعَى إليْـكَ رُوَّادُ الحَـاجِ مِـنْ بُعُـدٍ فَيُفْلِحُـــونَ.. بتخْويـلٍ.. وتقْـدِيسِ

ثم وُلِدَ له **"محمد"** الذي لقبه بـ **"الحوَار"** استلهاما لما يُسَمَّى في الثقافة الشعبية بـ "حوار الجنة"، فخاطبه أيضا:

إن الحـــوارَ محمَّـــدًا سيَسُـــودُ ولقوْمِـــه وعشـــيرِه ســـيَقُودُ

[1]- خاله: أحمد ولد أحمد أشنان ولد بو إبراهيم- قبره يوجد في الحزام الأخضر، شرقي مدينة مقطع لحجار، حيث مات هناك خلال مرور مدد جماعته، إلى بني عمومتهم المحاصرين في "شكار كادل"، ويوحي طول قبره المناهز لثلاثة أمتار على قوته البدنية التي تروى عنها قصص شبيهة بالأساطير.

المهمُّ أنَّ أبناء "آدبَّ" كلهم كانوا شُعَرَاءَ ونُثَرَاءَ بارعين، مثل سَلَفِهم، وقد تركوا **الشِّعْرَ والأدب** كلِمَتيْن باقيتيْن في عَقِبِهم، ما استمر النسبُ.. أبْناءً وأحْفادا...باسْتثناءِ رابِعهم سيْد مْحمد بن آدبَّ، الذي كان هو نفْسه شاعرًا، غيْر أنه لم يتركْ عقِبا[1].

وإلى هذا البعد الوراثي لجدل **النسب والأدب**، أشار الشاعر **محمد بن الحابوس** المعروف بمحمد "مِرّ"، بترقيق الراء، حيث يتخلَّصُ إلى مدحه **لسيدي بن آدب** بقوله:

فـ "سِيدِيَ" لا يُسابَقُ في مَجالٍ ... مِنَ العِلْمِ الصَّحِيحِ، وبذْلِ مال
ونحْوٍ حازَه، لوُجُودِ فتْحٍ ... كفَاهُ عن التّعَلُّمِ والكلالِ
وشِيمَتُه البَلاغَةُ في المقال ... ويُسْقَى العلْمْ كالعذْبِ الزُّلالِ

كما أشار إلى ذلك الشاعر: **عبد الله بن سِيدِي الدوبلالي**، حين مدح شيخه وصديقه: **محمد بن الشيخ أحمد بن آدب**، فقال:

[1]- لديه قطعة شعرية استشفائية لنفسها، مطلعها:

الحمدُ لله مُنْشِي الخَلْقِ إنْشاءَ ... بَانِيه مِنْ عَدَمٍ، مُفْنِيهِ إنْ شاءَ

كـــريمٍ متَـــى تُلْمِـــمْ بســـاحتِه تَجِـــدْ سَـــلاقةَ قُـــسٍّ، أوْ بَلَاغَـــةَ مَعْبَـــدِ
وبَسْطا، وتوْسِيعًا، علـى مَـنْ تَنُوبُـهُ نَوائِـــبَ دَهْـــرٍ بالمَعِيشَـــةِ أنْكَـــدِ
وعلـــمًا حبَـــا ربُّ البَرِيَّـــةِ سَـــيِّدا تَـــرَوَّى، بـــلا كـــدٍّ، بِـــهِ، وَتَجَهُّـــدِ
تَـــوَارَثَ ذَا مـــنْ عهْـــدِ آبائِـــه الألى بـــه عُرِفُـــوا مـــنْ كـــلِّ غـــوْثٍ مُجَـــرَّدِ
ومـــنْ عـــالِمٍ، عَلَّامَـــةٍ، مُتَفَـــنِّنٍ وبحْـــرٍ خِضَـــمٍّ في السَّـــمَاحَةِ مُزْبِـــدِ
وفضْـــلِ أَبِيٍّ مـــنْ أبيِّـــين ســـادةٍ أُلِي كَـــرَمٍ قـــدْ خُوِّلُـــوا كـــلَّ سُـــؤْدُدِ
فـــما ارْتَـــابَ في تَقْدِيمِـــه وارْتِفاعِـــه أخُـــو نظَـــرٍ، كـــلَّا، ولمْ يَـــتَرَدَّدِ
نَمَتْـــه كَرَامَـــاتُ البُسَـــيْفِيِّ شـــهْرةً إلى بيْـــتِ عِـــزٍّ بالفخَـــارِ مُشَـــيَّدِ
ومجْـدِ بنـي حَيْبَـلَّ إنْ كنْـتَ جـاهلًا إلى ذرْوَةِ البيْـتِ الـــشَّرِيفِ المُصَـــمَّدِ

وبعْد هذه الحفْريات الخاطفة في عمْق الترابُط بيْن "**أهْل آدبَّ**" و"**الأدب**: نثرا وشعرا" تبدو ثنائية: **النسب والأدب** في عنوان هذه الفقرة مسوغة، لا اعتساف فيها، ولا مجازفة، فحتى اسم هذه الأسرة، مشتق من صميم مادة "**الأدب**"، بكل ما تعنيه من **الأدب** النفسي، والدرسي، ومن **المآدب** الروحية، والمادية، حتى لكأنهم المعنيون بقول الشاعر الجاهلي: **طرفة بن العبد**:

نحْـــن في المَشْـــتاةِ نَـــدْعُو الجَفَـــلَى لا تـــرَى الآدِبَ فِينـــا ينْتَقِـــرْ.[1]

وباستحضار البعدين: الفني والخلقي **للأدب** يتضّحُ مدى الترابط العضْوِيّ بيْن شطري العنوان الكبير لهذه المقاربة: "**المقاومة الأخلاقية**"، و"**أدبيات أهل آدب**"، فذلك النوع من المقاومة يليقُ بالفرْسان، الشعراء، العلماء، المُرَبِّين، وهذا ما سَنتلمس أصداءه وتجلياته عبر مُدَوَّنَة القوم، لاختبار صلابة أطروحة العنوان.

[1]- **ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشمنتري**، تح: درية الخطيب، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، 2000م، ص 74.

ثامنـــا

تجليات المقاومة الأخلاقية

بعْد تأسيس أطروحة المَوْضوع، وتحْليل بنْيةِ العنْوان، تفْكيكا وترْكيبا، حانَ لنا اسْتجلاءُ تجلياتِ شواهِده، الدالة على مَقاصِده، من نُصوص "شعْر أهْل آدبَّ، وفُصُوص أدَبِيَاتهم العامّة، عبْر النقاط التالية:

أ- مقاومة الذات: صراع الإنسان والشيطان

لقد أدركَ القوْمُ - بتربيتهم الروحية العريقة- أنَّ معركة بناءِ الشخصية السَّوِيَّةِ، وتعْزيز السلوك المستقيم، تبدأ من داخل كيْنونَة الإنْسان، قبْل أنْ تشرعَ أسْلِحتها إلى الخارج/ إلى الآخر، وهكذا نجد **عبد القادر (آدب) بن سيد الأمين،** رب هذا البيت، يقدم نفسه **لشيخه الشيخ سيدي،** في مستهل رسالته إليه، باعتبارها (**ممَّن طغتْ به نفسُه** فألقتْه في مَهَاوِي الضلال، وغَلَبَه شَيْطانُه فصَدَفَ به عن طريق الرِّجال أهْل الكمال.

ومَلَكَهُ هَوَاهُ، فأدْخَلَه فيما يُسْخِطُ عليْه مَوْلاهُ، وتمَكَّنَ منْ قلبه حُبُّ الدُّنْيَا فامْتَلأَ من العُجْب، والسمعة، والرِّيَاء، وغير ذلك وغير... ممَّا لا يُحيطُ به إلا العليمُ الخَبير، العبيدُ الفقير الحقير، الذي هو في أيدي ما تقدمَ ذِكْرُه من الأعْداء أسير: **عبد القادر بن سيد الأمين،** خلَّصَه الله بجاهكم من أسْر النفس، والهوى، والدنيا، واللعين)[1].

ويتضح في بسطه لأهداف رحلته إلى شيخه، مدى إدراكه لأن جُلَّ الأخلاق، غرائزُ طبيعيةٌ مسْتحكمةٌ في كينونة الإنسان، لكنه -في المقابل- **يعلن رغبته واستعداده الروحي لاكتساب الأخلاق الفاضلة،** وإيمانه بمدى فاعلية التَّخَلُّق، والتنْشئة، والتربية، على يد المعلمين، والأشياخ، إذا صاحبها التوفيق الإلهي، الذي يعتبر هو الفيصل الحاسم أولا وأخيرا، **فهو يخاطب شيخه،** قائلا:

(**لكنَّ الله يزيلُ الأشياءَ من مَجالِها،** بخَلْقِ أضْدادِها في مَحَالِّها، فيزيل نارَ الشُّحِّ ويُخْمِدُها بمَعِين الإيمان...

وكذلك الغَضَبُ يَخْلقُ مَكانَه الحِلْمَ، ويخلقُ العِلْمَ مَكانَ الجَهْلِ، والنُّورَ مكانَ الظلْمة والرِّقَّةَ مكانَ القسْوَة، إلى هَلُمَّ جَرّا.

---

[1]- هارون: نفسه، ص 96.

وقلَّما كانَ هذا إلا بواسِطَةِ نَبِيٍّ، أو وَلِيّ، وقد لجأتُ إلى الله، ثم إليكم متوجِّها بكم إلى أشياخكم، ثمَّ بكمْ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بكم إلى الله أنْ يفتحَ علي في العِلْمِ والحِلْمِ والحِكْمَةِ **وأنْ يُوفِّقَنِي للخدْمة**، وأنْ يجعلَ حاجِزًا بيْني وبيْن المَعْصِيةِ، وأنْ يصحبَني بلُطْفِه الجَمِيل في الدنْيا والآخرة، وأنْ يأخَذنِي عنِّي إليه، ويُرغبَنِي فيما لديْه، وأنْ يُعَرِّفَني مَحَلَّ القرْب، ويجْعلنِي أقْرَبَ من القرْب.

ثم إنِّي – وإن كنتُ كما تعلمُ سيِّدي، فلا عَلَيَّ، بل لا بدَّ لِي منْ أنْ تتفضَّلَ عليّ بنظرْة يتسِّعُ بها صدْري، وَيُطْلَقُ بها من قيودْ **النفْس والهوى والشيطان والدنْيا**- أسْري، فتُرْسِلَ علَى نَار **شُحِّي** مِنْ مَعِينِ أنْوار إيمانِك؛ فيزيلها إذ لا يجتمعان، وتفيضُ على نَارِ **غَضَبي** من ماء حِلْمِكَ فيُطفئها، وتسْكبُ على... **جَهْلِي** العظيم وابِلًا من فاخِر عُلومِكَ فيُذْهِبه، وتنشرُ من أنْوارك حُلَّةً ضافيةً على كثِيفِ ظُلمات جَوِّ باطِنِي فتنْجَلِي كمَا ينجَلِي غسَقُ الليْل إذا طلعتِ الشمس.

وتسْري من رِقَّتكَ وخَشْيَتِكَ في سُويْداءِ قلبي القاسي، فيصيرُ أرَقَّ قلْب وأصْفاهُ، وأشْفقَه من مَوْلاه وأخْشَاهُ، إلى غير ذلك مما يطول ذِكْرُه، ويحيرُ[1] فيه مَنْ تَتَبَّعه ولوْ كانَ فطينًا فِكْرُه، مما يكْفي فيه علْمُ الله، ثُمَّ علْمُكم سيِّدِي ذا الجاه.

وكوني **لا أصبر طبْعٌ**، كما تقدَّم، **وأمَّا أنَا** فأخْتَارُ **الصَّبْرَ** والحِلْمَ والظفر، والإنسان لا حِيلةَ له في زوال الطبْع والجِبِلَّةِ إلا بتوفيقٍ منَ الله ذِي الأسماء الحُسْنى، وهِمَّة عارف إنْ أقْسمَ على الله أبَرَّ قسَمَه، كما قيلَ: "العارفُ إذا أرادَ أغْنَى"، وقال الشاعر:

وكلُّ امْرِئٍ يَبْغِي السمَاحةَ والنَّدَى ولكنَّ طبْعَ المرْءِ للمَرْءِ جَالِبُ

والآنَ -يا سّيِّدي- لا بُدَّ من أحد أمريْن: إمَّا أنْ تأذنُوا لِي في الخروج إلى الأهل، لكني لا أقبله إلا أن تشيعوني بجميع حوائجي، وإما أن تنظروا إليَّ نظرةً

[1]- في **تاج العروس**، واستعمَلَ بَعْض فِي مُضَارع {حَارَ} يَحِير كَبَاع يَبِيع، بِنَاء على أَنَّه يائِيُّ العَيْن...

بمُجرَّدِها يُشْفَى قلبي من جميع ما فيه من الأدْواء، ويمْتلئ عِلْما، وحِلْما، وصِدْقا، وإخْلاصا، وتقْوى؛ فيكون عنده الذمُّ، والمدْحُ، والحُبُّ، والبُغْضُ والعطاءُ، والمَنْعُ، والضرُّ، والنفْعُ، على حَدٍّ السواء)[1].

والحقيقة أن هذه المقاومة الذاتية في مجاهدة النفس، وترويض نوازعها، وتكييفها مع السلوك الأمثل، والخلق الأفضل، تصبح أصعب، حين يكون ميدانها **الأرواح النزاعة** إلى الفتوة، لا سيما بالنسبة لَمَنْ تتركَّبُ نفْسِيتهم من **نَوَازِع** الشاعر العاشق-بفِطْرَتِه- للجَمَال، بكلّ تجلياته، **ورَوَادِع** العالم الصُّوفيّ الناسِكِ، وعلى ضوْء هذا التحْليل كانتْ نُصوصُ عِتَابَ النفْس، وتأنِيب الضَّمير "تيمة" حاضرَة بقوَّة في مُدَوَّنَةِ القوْم.

فهذا **محمد (ويقي) بن سيد الأمين**، أخو **آدب**، وأبوه الروحي، يقول في هذا الصدد:

فُـؤادِيَّ مِـنْ ريْـنِ المَـآثمِ مُسْـوَدُّ ... وقسْـوَتُه مـا مِثْلَهَـا الحَجَـرُ الصَّـلْدُ
ومَهْمَا عَقَـدْتُ العـزْمَ في فعْـلِ قُرْبَـةٍ ... تُنَـوِّرُهُ يَنْحَـلُّ مِـنْ عَزْمِـيَ العَقْـدُ
وإبْليسُ بالإغْوَاءِ والـنفْسُ والهـوى ... ...عَـنْ مَـنْهَجِ الرُّشْـدِ قـد جَـدُّوا
ومـا لي مـن طـوْقٍ أطِيـقُ لـه بهـمْ ... دِفَاعًـا ومَـا لِي مِـنْ دِفـاعِهُمُ بُـدُّ
فلـــم أرَ لِي فِي ذاكَ غـــيْر توسُّـــلِي ... بمن همْ لتفْريج الشـدَائدِ قـد عُـدُّوا
أولئكَ أشْيَاخِي، الـذِي مـن أكُفّهِـمْ ... يُغَاثُ الوَرَى طُرًّا مَتَى أخْلَفَ الوعْدُ

وعلى منزعه سار أخوه عبد القادر "آدبّ"، ربُّ "البيْتِ الشِّعْريّ" العِلْمِيّ، يقرَع أجْرَاسَ الإنْذار لنفْسه، قبْل أنْ يقْرَعها لغيْره، قائلا:

[1]- هارون: نفسه، ص 97- 98.

ألا أيُّها العبْـدُ.. الكَسِـيرُ.. المَهِـيضُ ألَمْ يَانِ-بعْد الشيْبِ- منْكَ.. نُهُوضُ؟!
ألَمْ يَانِ أنْ تسْلُو.. ولِلـنَّفْسِ-بعْـدَما طغـــتْ، جَهْـــدَها، واســـتخْدَمَتْكَ-
وتأْخُذَ-منك- الجَهْدَ.. دَأْبًا.. مُشَمِّرًا تَـــــــــــــــــــــــــــرُوضُ؟!
رَأَيْتُـكَ لم تَسْـتَحْي بِيضًـا، تلامَعَـتْ ومَالكَ-في ليْـلِ الـتَّمامِ- غُمُـوضُ!
فَهَيِّـــئْ.. دَواءً.. حمْيَـــةً.. وعَقائـــدًا برَأْسِكَ.. أنْ يَقْـتَـادَ قَلْبَكَ بِـــيضُ!
فبَـــادِرْ ولا تشْـــغَلْكَ "ســـوْفَ" تَنَـالُ -بِها- بُـرْءً.. فأنْـتَ مَـرِيضُ!

هكذا نرى مَراصِدَ الوالد، تتوجَّهُ مَراياها العاكسة إلى ذاتِه، -قبْل غيْره-، وتشخِّصُ مأزَقها الصعْبَ، في مَقام **"النفْس اللوَّامة"**، مُنْصَرِفَة عن **"النفْس الأمَّارَة"** المرْهوبة، إلى " **"النفْس المُطمئِنَّة"**، المرْغوبة، وعلى هذا المَنْهج تبعَ البَنُون أباهم، و"من شابهَ أباهُ فما ظلم"، حيث وجدنا هناك نصا -في هذا السياق نفسه- **عانق فيه صوتُ "سِيدِيّ"، صوْتَ "آدبَّ"**، حين قام الابنُ بتخْميس أبْياتِ الوَالد، وعنْدما أصبح "سِيدِيّ عميدَ الأسْرة، كانَ أخُوهُ الشيخ أحمد في ريعان فُتُوَّتِه، فبَدأ حِوارُهما – شِعْرًا- بيْن "الشيخ والمُريد"، حوْل "المُقاومة الأخلاقية" ذاتها، إذ كان الفتَى يسْتشعِرُ بعْضَ جُنُوح نفْسه، إلى شهَواتِها، شاكِيا ذلكَ إلى أخِيه الأكبْر شيخه:

يَعُودُ السلامُ، الحافِلُ، الأوْفَرُ، الأسْنى إلَى سَيِّـدِي "سِيدِيَّ" وَالِـدِيَ الأحْنى
تِمَالَ اليَتَـــامَى.. فهْوَ بَهْجَـةُ عصْـــرِه وطلَّاعُ تلِّ المَجْدِ.. وهْـوَ لـه مَغْـنَى
وشَافِي مُرِيدِ.. مِـنْ مَرِيـــد.. بنظْـرة ومَرْمَـى عِصِيِّـ السـيْر الأقْصَى ـ أوِ
بَأَنِّي لمْ أرْدُدْ.. لِنَفْسِـيَ.. عنْ هـــوًى الأدْنَـــــــــــــــــــــــــــى
وأنتمْ.. إذا تاقَـــتْ تَرُومُـونَ ردَّهَـــا ولمْ -سَيِّـدِي- يَرْدُدْ لهَـا رَبُّها الأعْنَى

[1]- لقد استحضر هنا قصة رجل من تميم كان أسيرا عند قوم، فسمعهم يتحدثون عن عزمهم على غزو قومه، فطلب منهم السماح له بإرسال رسالة إلى أهله، فاشترطوا لذلك أن يسمعوا الرسالة، حتى يتأكدوا من خلو محتواها من أي إنذار، فكان من ضمن وصاياه لهم:

وقد كانت **الوصفة الشافية قصيدة "سيدي"**، التي فعلتْ فعْلَها الخَارِق، فِي **نفْسِيةِ الشيخ أحمد**، وفِي سُلوكِه، حيث سُمِّيَتْ هذهِ القصيدةُ فِي أوْسَاطِ تَدَاوُلِهَا: بـ **"التربية"**، وهي نونية من الطويل:

عَتَبْتُكَ، فاهْنأ، لا عِتَـابَ.. ألا فاهْـنا ... ومأْتاكَ -أيًّا كانَ- عنْدي هو الأهْـنَا
أُحِبُّ الــذِي أحْبَبْـتَ.. غَـيْرَ مُحَـرَّمٍ ... وأبغضُ ما أبْغضتَ بالحِسِّ، والمَعْنَى
وأبذلُ.. مَـالِي.. في رضـاكَ.. وكلَّـما ... حَمَيْتكَ.. لمْ أمْنَعْهُ حِرْصًا.. ولا ضَـنَّا
ولكن، لأمْرٍ.. لمْ أُكَلِّـفْ.. بنـشْـرِه ... مَغَبَّـــتُه محْمُـــودَةٌ.. لَـــنِ اسْـــتَأْنَا
وما خِلْتُ تـصْرِيفي لأمْـرٍ.. مُخَالِفًـا ... هوَاكَ.. كمَا عنْدِي هَوَاكَ مُنًى حُسْـنَى
وحَاشَى.. ويَأْبَى اللهُ.. تقليدَكَ الهَوَى ... وطَوْعَكَ قِتْلا، مُفْسِدًا، قَبْل أنْ يُثْنَـى
فرُضْها، وذُدْها عنْ هواها.. وزَكِّهـا ... ولا تُعْطِها نَيْلًا.. تَنَلْ مَـا به تُعْنَـى!
لأنَّ بظَلْفِ النفْسِ.. عن شهواتِـــها ... يَنَـــالُ الفَتَـــى.. المَـــأمُولَ -فِي اللهِ-

"... وأن يعروا ناقتي الحمراء فقد أطالوا ركوبها ويركبوا جملي الأصهب... فلما وقفوا على الكلام.. قالوا جن الأعور بعدنا إذ لم نعرف له ناقة ولا جملا".... ثم دعوا أحد حكمائهم "فلما قصوا عليه القول قال أنذركم... والناقة الحمراء الدهناء، والجمل الأصهب الصمان، يقول اعدلوا عن السهل إلى الجبل..." انظر: داود بن عمر الأنطاكي: **تزيين الأسواق في أخبار العشاق**، ص 191.

ولا عِــزَّ.. إلا بَعْـدَ إِذْلَالَ مُهْجَــةٍ ولا رَاحَةٌ-دُونَ العَنَا- ثَمْرُها.. يُجْنَى
فتلْكَ سَبيلُ الحق.. قامتْ بقوْمِها ومَنْ لمْ يُقِمْها.. لا يُقِيمُ لَهُ وزْنا
وما حازَ قَصْبَ السَّبْقِ إلا مُشَمِّرٌ قدَ آثرَ.. ما يبْقَى.. على كل ما يَفْنَى
وأَلْقَى حُظوظَ النَّفسِ، ظِهْرِيةً.. ولمْ يعرِّجْ على كأسٍ.. سقتْه.. له.. وهْنا
وضمَّرَ طِرْفَ العزْم، لمْ يـثْنِ طَرْفَه إلَى غيْرِ مَطْلُوبٍ.. أمَامَ.. لهَا اسْتدْنى
وجَدّ سَبيلَ القَوْمِ.. لمْ يـأْلُ.. قاطِعا صَحَاصِحَها، والمَهْمَهَ القَفْرَ، والدَّهْنا
تلاشَى.. لدَيْهِ الكوْنُ.. ينْحُو مكوِّنا فقدْ هَجَرَ الأفْراحَ، واسْتَصْحَبَ
ولمْ يتَّخِذْ -غيْرَ المُهَيْمِنِ- صاحِبًا الحُزْنا
هنالكَ.. يَحْظَى.. بالذي هُوَ آمِلٌ ولادُونَ ما يخْشَى-سِوَى ذِكْرِهِ-
وتصْحَبُه -منْهُ- العِنَايَةُ.. كائِنا حِصْنا
وتُطْوَى له قُصْوَى المَفَاوِزِ.. مُلْقِيًا ويَصْحَبُه التَّيْسِيرُ.. فِيمَا له عنَّا
على نحْوِ هذا، فانْحُ، إنْ كنْتَ ناجِيًا له-في المَرَامِ- العيْنَ.. واليَدَ.. والأُذْنا
لتبلغَ أقْصَى ما تُريدُ.. وتقْتَفي عَصَا سَيْرِهِ.. قد بُوِّئَ المَقْعَدَ
عليْه صَلَاتِي.. مَحْوَ ذنْبٍ.. بتوْبَةٍ الأَسْنَى

وهكذا **استتب الشيخ أحمد** - بعْدَ هذه القَصِيدة- على طريق **"القوم"**، مرتقيا **"في مَدَارج السالكين"**، حتى أصبح وريث أخيه **"سيديّ"**، في **المشيخة**، وتصدير المريدين، جاعلا من عتاب النفس، موضوعا لجملة من نصوصه:

وله هذه الميمية من البسيط:

عبْدٌ عَلَا الشيْبُ فَوْدَيْهِ وما كتمَهْ لو كانَ يُمْكِنُهُ كتْمانُهُ كتَمَهْ
بلْ لا بَقَاءَ لليْلٍ كانَ حَادِيَه صبْحٌ مُنيرٌ عليْهِ ناشِرٌ عَلَمَهْ
لَّما رأى البِيضُ بِيضًا في مَفارِقِهِ أَبَيْنَ تكليمَه، والسقْمُ قدْ كَلَمَهْ
قد كانَ يأْبَى -كَلامَا- دلَّ كُلٌّ رَشا وَاليَوْم تمْنعُه الأرْشا وَلَوْ كَلِمَهْ

فقـالَ، مُتَتَعجِبًـا: خُنْـتُنَّ؟ قُلْـنَ: أمَـا تَرَى ابْنَ دَايَـةَ عَزَّتْـهُ الأَنُـوقُ؟ فَمَـهْ
وكُنَّ، إنْ زارَ، أو إنْ رِيءَ، مِـنْ بُعُـدٍ يُعْوِلْنَ، مِنْ شَغَفٍ، يُعْلِنَّ: وَا سَـقَمَهْ
البِيضُ يُنْكِرْنَ مَا قد كان مِنْكَ، فخُضْ بَحْرَ السُّـلُوِّ، وَذَرْ مـا كُنْـتَ مُغْتَنِمَـهْ
وابْكِ الشبابَ، ووصْلُ البِيضِ مَأْتَمُهُ أقِمْهُ -وَيْكَ- وَخَلِّ العَيْنَ مُنْسَـجِمَهْ
بل بالبكاءِ أحَـقُّ الـذنْب، فابْـكِ لـهُ وعَدِّ عمَّا مضـى، لا ترْتكِـبْ زِيَمَـهْ
نُـحْ نـوْحَ أمٍّ وَحِيـدٍ إذْ تصـابُ بـه ودَمْعكَ، الدَّهْرَ، منه اسْتَمْطِرَنْ دِيَمَهْ
فـالعمْرُ ولَّى، وليْـلُ الجهْـلِ غيْهَبُـه عاضَ البَصيرَةَ مـن أنْوارِهـا ظُلَمَـهْ
أضعتَ عمْـرَكَ، في غَـيٍّ، وفي سَـفَهٍ مَنْ ضَيَّعَ العُمْرَ فِي البُطْلَانِ قد ظَلَمَهْ
آنَ ارْعِواؤكَ، إذْ حانَ ارْتِحالُكَ، عـنْ دُنْياكَ، حالُكَ مَنْ سَـوَّاكَ قـد عَلِمَـهْ
فمَنْ لعاصٍ على العصْـيانِ مُعتكـفٍ وأسُّ رُكْنِ التُّقَى بالذَّنْبِ قدْ هَدَمَهْ؟
ضارٍ، بمَا ضَرَّ مِـنْ نـوْمٍ ومـنْ كسَـلٍ مُغْـرًى بـما غَـرَّ ممَّـا يقْتضِـي نَدَمَـهْ

والحقيقة أنَّ هذا هو **الموضوع الأثيرُ** عند جميع أفراد **"بيْت الشعر"** هذا، **فمُحمد لحوار بن آدبَّ**، شقيقُ سابقيْه، يرفعُ أنَينَ روحه -في مَقام العُبودية ذاتِه- شاكيا إلى الله كثافة رَيْنِ الذنُوب، على مِرْآةِ نفْسِه، مُشْفِقا من هاجسِ القطيعةِ، عن لذيذِ صِلَتِه بربِّه:

عبْدٌ.. شَجَاهُ.. لَمَا رَأَى.. مـن حالِـهِ حـذَرُ القطيعـةِ مـن لذيـذِ وِصـالِهِ
عبْدٌ.. تَرَاكَـمَ.. مِنْ كَـثَافَةِ ريْـنِه بحِجاهُ.. جَالِـبُ حتْـفِه.. ووَبَـالِهِ
وبصَـدْرِه- ممَّـا يُجِـنُّ مِـنَ الأسَـى زَفَـرَاتُ ذِي فـزَعٍ، مَـرُوع، والِـهِ
فإذَا تَرَاكَمَـتِ الهُمُـومُ.. فحَسْبُه ربٌّ يَـرَى مَـا لا يُـرَى مـنْ حَالِـهِ
يَدْعُو، ويَرْجُـو أنْ يُقابَـلَ.. بالَّـذِي يَعْـتَـادُ مـن إفْضـالِه.. ونَوَالِـهِ
مُتذلـلا، مُتَبَـتِّلا، مُتَنَـصِّلا مما جَـناهُ، بقـالِهِ، وفعالِـهِ
ومُـؤَمِّلا نيْـلَ المُنَـى.. مُسْـتَنْفِعا بجَـلالِه، وجَمـالِه، وكمـالِهِ
مُسْتَشْـفِعا، بشـفيعِنا طـه الرِّضـا مسْتَمْسِـكا، بالغـرْزِ مـن أذْيَالِـهِ

صـــلَّى عليْـــه إلهُـــهُ.. في حزبـــه وعـلى الأفاضـلِ، صَـحْبِهِ، في آلِـه

ثم يواصل تضرعاته:

من سُوءِ ما عملتْ نـفْسِيَّ، مُكْـتَرِبٌ فرِّجْ كروبي، إلاهي، فـارجَ الكُـرَبِ
واغفِرْ -إلاهي- ذنوبا، كنت أفْعلُها واصفحْ، وسامحْ، عن اللذاتِ، والطربِ
وأوْلِني -منكَ- أسرارَ العلومِ، بـلا كدٍّ، ولا تَعَـبٍ، يـا وَاهِـبَ الطَّلَـبِ
والله يقضـــي -بـلا رَيْـثٍ-..... بجاه أحمـدَ- مـا أرْجـوه، مـنْ أرَبِ
عليـــه مـــن صـــلوات الله أفْضـــلُها من ساد- في البدْء، ثم الختْم، كَلَّ أبِي

وهكذا يبدو أن شبابَ هذه الأسْرة ينْزَعُ إلى الفُتُوَّةِ، بكلِّ تجلِّياتِها، ولكنَّه سرْعانَ ما يُدْرِكُ **"أنَّ منْ تَّقِي اللهَ البَطَلْ"**.

ب- جدل الغضب والأدب

الغضب - غالبا- مناف **للأدب**، بمفهومه العام الذي تتأطر هذه الأسرة ضمن مُسَمَّاه ومَعْنَاهُ، ومجاهدة القوة الغضبية في الغرائز الإنسانية، تدخل في صميم مفهوم **"المقاومة الأخلاقية"**، عموما، التي هي -أيضا- جوهر التقويم السلوكي للرسالات السماوية، وللإسلام خصوصا، ديننا الحنيف؛ المشتق اسمه من السلام، والمسالمة، إذ كل التعاليم الأخلاقية تدرك أن القوة الغضبية قد تتحول إلى إعصار مدمر، إذا لم يُتَحَكَّم في طاقتها الانفعالية الهوجاء، بضوابط وكوابح أخلاقية صارمة، ولذلك يروى عَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ عَمٍّ لَهُ، أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: **قُلْ لِي قَوْلًا يَنْفَعُنِي وَأَقْلِلْ لَعَلِّي أَعِيهِ، قَالَ: "لَا تَغْضَبْ"، فَعَادَ لَهُ مِرَارًا، كُلُّ ذَلِكَ يُرْجِعُ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَنْ لَا تَغْضَبْ")**[1].

[1]- **مسند أحمد**: ط/ الرسالة: 38/ 231.

وفي رواية أخرى يعلق الصحبي المخاطب هنا:

(فَفَكَّرْتُ حِينَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مَا قَالَ، **فَإِذَا الْغَضَبُ يَجْمَعُ الشَّرَّ كُلَّه)**[1].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **مَاذَا يُبَاعِدُنِي مِنْ غَضَبِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: "لَا تَغْضَبْ "**[2].

وعلى ضوء هذا حدد **عبد القادر "آدب" بن سيد الأمين، البوسيفي** أكبر حافز له على الرحلة إلى حضرة الشيخ سيدي، بأنه الشكوى من **"الغضب"** المستحكم في سلوكه، متشابكا مع عزة النفس، وعدم تحمل الأذية، رغم إدراكه لخطورة ردَّاتِ فعْله على **"أَدَبِيَّتِه"** المرغوبة، فهو يخاطب شيخه:

(**ثم لتعلموا –سيِّدي**– ولوْ كنتمْ بالحالِ أدْرَى، وأعْلى مَنْزِلة وقدْرا– أنِّي مع ما أعْلمُ من خبْث نفْسي، وغلَبَةِ هوايَ وشيْطاني ورِجْسِّي، بالغٌ من شِدَّة **الانتصار للنفْس**، وعدَم التحَمُّل لقليل من **أذية أبناء الجِنْس**، مبْلغا لا أُمَيِّزُ فيه –**إذا غضبتُ**– بين الحرام والحلال، ولا بين القبيح والجميل من المقال.

وهذه المَسْألة هي مِن جُلّ **ما حَمَلَنِي على الخُروجِ منْ بلادي**، وعن أهْل وِدَادي، مع ما هو بداخلي من خُبْث الطوية، والجهالة وعدم المَزية، فقصدتكم –سيدي– لزوالها وزوال غيرها من الخلال الذميمة، فتجعلوا مكانَها أوصافا حميدة، وأنتم –ولله الحمد–... "أهل التكرُّم والفضل"، قال الشاعر:

ومَـا كنـتُ أهْـلا للوصـالِ، وإنَّـما حُمَاةُ الحِمَى أهْـلُ التكـرُّمِ والفضْـلِ

والغضبُ الذي ذُكِر –سيدي– آنِفًا، وَغَيْرُه من الأوصاف المذمومة شرْعا وعادة– طِباعٌ غريزية، والطباعُ تَزولُ قبْلها الجِبال، من المَحَالّ، كما روي: "إذا سمعتَ بجبلٍ زالَ عنْ مَحلِّه فلا تنكرْ، وإذا سمعتَ بطبْعٍ زالَ عن صاحِبهِ فكذِّبْ"

---

[1] – **مسند أحمد**: ط/ الرسالة، 38/ 236.

[2] – نفسه، 25/ 330.

لكنَّ الله يزيلُ الأشياءَ من مَجالِها، بخَلْقِ أضْدادِها في مَحَالِّها، فيزيل نارَ **الشُّحِّ** ويُخْمِدُها بمَعِين الإيمان ...

وكذلك الغَضَبُ يَخْلُقُ مَكانَه الحِلْمَ، ويخلقُ **العِلْمَ** مَكانَ الجَهْلِ، و**النُّورَ** مكانَ الظلْمة و**الرِّقَّةَ** مكانَ القسْوَة، إلى هَلُمَّ جَرّا .

وقلَّما كانَ هذا إلا بواسِطَةِ نَبِيٍّ، أو وَلِيّ، وقد لجأتُ إلى الله، ثم إليكم متوجِّها... بكم إلى الله أنْ يفتحَ علي في العِلْمِ والحِلْمِ والحِكْمَةِ، وأنْ يُوفِّقَنِي للخدْمة، وأنْ يجعلَ حاجِزًا بيْني وبيْن المَعْصِيةِ، وأنْ يصحبَني بلُطْفِه الجَمِيل في الدنْيا والآخرة، وأنْ يأخَذنِي عنِّي إليه، ويُرغبَنِي فيما لديْه، وأنْ يُعَرِّفَني محَلَّ القرْب، ويجْعلنِي أقْرَبَ من القرْب...

وكوني لا أصبر طبْعٌ، كما تقدَّم، وأمَّا أنَا فأخْتَارُ الصَّبْرَ والحِلْمَ والظفر، والإنسان لا حِيلةَ له في زوال الطبْع والجِبِلَّةِ إلا بتوفيقٍ منَ الله ذِي الأسماء الحُسْنى، وهِمَّة عارف إنْ أقْسمَ على الله أبَرَّ قسَمَه، كما قيلَ: "العارفُ إذا أرادَ أغْنَى"...

والآنَ -يا سّيِّدي- لا بُدَّ من أحد أمريْن: إمَّا أنْ تأذنُوا لِي في الخروج إلى الأهل، لكني لا أقبله إلا أن تشيعوني بجميع حوائجي وإما أن تنظروا إليَّ نظرةً بمُجرَّدِها يُشْفَى قلبي من جميع ما فيه من الأدْواء، ويمْتلئ عِلْما، وحِلْما، وصِدْقا، وإخْلاصا، وتقْوى؛ فيكون عنده الذمُّ، والمدْحُ، والحُبُّ، والبُغْضُ والعطاءُ، والمَنْعُ، والضرُّ، والنفْعُ، على حَدٍّ السواء)[1].

ونتيجة لإلحاح الضجر من "**الغضب**"، على نفسية **آدب**، يستدرك بعد إنهاء رسالته، إلى شيخه، التي يريد فيها الفتوى التربوية، الصوفية، بوضع ذات المضمون، على شكل سؤال يطلب الفتوى الشرعية الفقهية، فيقول:

[1] – هارون: مصدر سابق، ص 97– 98.

(**سُؤالٌ عن شخْصٍ سريعِ الغضَبِ،** هل الأفضل له اعْتزالُ الناسِ؟ أو مُخالَطتُهم؟.

وعلى أنَّ الأفضل له أحد الأمرين؛ فما الوجه الذي ينبغي له أن يستعمله في ذلك الأمر؟.

وهلْ له إنْ **تغاضبَ** مع شخْص آخر أنْ يهجُره...، أولا يجوز له فوق الثلاث، كما هو المشروع؟.

ألتمسُ منكم يا سيِّدي الجواب عاجلا، فإن **سُرعة الغضب شِيمتي،** مع **سُرعة زواله،** فأبقى متحيرا في الهجران، وغيره، فأيهما حكمي؟ فكلما أردت الهجران خشيتُ ما فيه من الإثم، وكلما رمت غيره خشيت الفتنة، فما الحكم؟"[1].

وقد كانت **وصفة الشيخ سيدي،** لمريده عبد القادر **(آدب)** بن سيدي الأمين**،** عبارة **عن مُرَكَّبٍ روحي** يصدق عليه – فعْلا– وصف **"كيياء السعادة"،** الذي وسم به **التقوى،** حيث رَكَّبَ علاجَ مرض **الغضب،** من أربعة عناصر ناجعة**،** هي**: التقوى، والمَرْحَمَة، والحق، والصبر،** فكتب له، وصية ملحقة بإجازته إياه:

(**ثم إني موصٍ نفسي وموصيك** – أيُّها **الابن الأبَرُّ** الحاذق**، والمريد الأغرُّ** الصادق– أخذَ الله بناصيتي وناصيتك إليْه، وقادني وإياك إلى حضرته، قوْدَ الكِرام عليه–**بتقْوَى الله** في السر والجهْر، وبما نَدَبَ – سبحانه– إلى التواصي به في مُحْكَم الذِّكْر، من **المَرْحَمَةِ** ومِنَ **الحَقِّ** و**الصَّبْر**.

فالتقْوى رأْسُ كلِّ حِكْمَة، وجِمَاعُ كلِّ خيْرٍ ونِعْمَة، ومن جُمْلة أفرادها ما ذَكَرْنا من بَعْدها، وهي وصيةُ ربِّ العالمين للأولين والآخرين؛ فقال تعالى: چٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ٹ ٹ ٹ ٹ هچ[2].

[1] – هارون: مصدر سابق، ص 99.

[2]– **قرآن كريم**، سورة النساء، الآية: 131.

وقد ورد في الأمْر بها، وحُسْن الثناء على المُتَّصِف بها، وشِدَّةِ الاعتناءِ بإسْناءِ جَزاء المُتَعلِّقِ بسبَبِها -من الآيات والأحاديث- ما لا يُحْصى، ولا يُستقصَى فقد قال الله عز وجل: چ ٹ ٹ ٹ ٹ ڈ ڈ ڤ چ[1]. وقال تعالى: چ چ ڍ ڍ ڌ ڌ چ[2]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (الكرم التقوى).

وقال صلى الله عليه وسلم لبعض أصحابه: «أوصيكَ بتقْوى الله، فإنها رأسُ الأمر كله».

... **والحاصل أنها كيمياء السعادة**، وسبب يوجب لذويه الحُسْنى والزيادة، ومعنى التقوى: خوف العبد من ربه وباريه، والتزام طاعته وترك معاصيه.

وإن شئت قلتَ: هو امتثال المأمورات، واجتناب المَنْهِيَاتِ، ظاهرا وباطنا، وإنْ شئتَ قلتَ: هو اجتناب كلما يبعد عن الله تعالى.

وأمَّا المَرْحَمَة فقد أثْنَى الله تعالى على الصحابة بها؛ فقال: چ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ چ[3]؛ أي يرحم كبيرهم صغيرهم، كما يوقر صغيرهم كبيرهم.

والتوقير: رحمة في إعْظام، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما يرحم الله - من عباده- الرحماء»، وقال عليه السلام: «ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء».

وبالتراحُمِ تحصلُ الصِّلةُ الواجبةُ بين أولي الأرحام، وتندفع القطيعة، وتكون النصيحة بين إخوان الإسلام، التي هي مأمور بها، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «الدينُ النصيحةُ، قالوا: لمنْ يا رسول الله؟ قال: لله، ولرسوله، ولكِتابِه، ولأئمة المسلمين، وخاصتهم، وعامتهم».

---

[1]- **قرآن كريم**، سورة آل عمران، الآية: 102.

[2]- **قرآن كريم**، سورة الحجرات، الآية: 13.

[3]- **قرآن كريم**، سورة الفتح، الآية: 29.

ومعْنى المَرْحَمَةِ المَنْدُوب إلى التواصي بها هو رحْمةُ المَساكِين، وغيرهم، وقيل: هي كلما يؤدي إلى رحمة الله تعالى.

وأمَّا الحَقّ المندوبُ إلى التواصي به، فهو الإسلامُ وما يتضمنُه من الأعمال والطاعات، وقال بعضهم: هو القرآن، والعملُ بما فيه، من الإيمان، والتوحيد، وسائر شرائع الإسلام.

فعليك – حفظك الله ورعاك، وحمد مَسْعانا ومسْعاك– بالدورَان مع الحق حيثما دار، والطيران معه حيثما طار، وكن ممن صدقَ مع الله في السر والعَلن، واعتمدَ عليه في المقام والظَّعَن، وقامَ بحق العبودية بالقلب والبَدن، ورضي عنه في موارد المِنَحِ والمِحَن، وتَوَلَّهُ، فمَن يتولَّ الله ورسولُه، فقد فاز بأعظم المِنَن، وعامِلْ **بالشريعة** الخلق، و**بالحقيقة** الحق، وزِنْ أعْمَالكَ بقِسْطَاسِ الإقامةِ، وأحْوالك بميزانِ الاستقامة، وتَوَكّلْ على الله، واسْتَعِنْ بالله، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

وأمَّا الصَّبْرُ –وهو حبْسُ النفْس على ما تَكْرَهُهُ– فهو على ثلاثة أقسام، كما في بعض تصانيف مشايخنا رضي الله عنهم: **صبر** على الطاعة، **وصبر** عن المعصية، **وصبر** على المعصية.

ويكفي الصبرَ من الفضْلِ ما جاء في القرآن الكريم من كوْنه مُوجِبًا لَمَعِيَّة الله: چپپ پ پ ڀ ڀ ڀچ[1]؛ أي معهم بالإعانة والنصر، ومِنْ كوْنه لا تقديرَ لأجْره، ولا حِسابَ لذُخْرِه؛ چ □ □ □ □ □ □ □چ[2].

فما من قُرْبَةٍ إلا وأجْرُها بتقديرٍ وحِسابٍ إلا الصبْر... وفائدتُه لا تُحصى، وثمرته لا تُسْتَقْصى ...

وإياك – حفظك الله ورعاكَ، وتولَّانا بعنايته وولايته وتولاكَ– **ومخالطة الأحداث** فإنها داعية الارتكاس، والتلبُّس بالأحْداث، ولا قاطع للسَّالك –في

---

[1]– **قرآن كريم**، سورة الأنفال، الآية: 46.

[2]– **قرآن كريم**، سورة الزمر، الآية: 10.

طريقه- أقطع من مُصاحَبة أبناء الدنيا، والدخول فيما هم فيه من اللهْو، فإنَّ القلبَ - ما دامَ في الطريق- مُنْجَذِبٌ - بطبْعه- إلى حَضيض الحُظوظ، مَتَرَقٍّ - بالمُجاهدة- إلى جهة الحُقوق، فصُحبة الأبْرار، أرباب الاعتبار، مُرقيَّة له إلى الوُصول، كما أنَّ صُحْبَة الأحْداث وأهل الاغترار حَاطَّةٌ له إلى حَضيضِ الحظ المعْلول، والعزْم المَحلُول.

قال ابن عطاء: **"لا تصحبْ مَنْ لا يُنْهِضُكَ حالُه**، ولا يَدُلُّك - على الله- مَقالُه، وذلك أن **النفوسَ تنْفَعِلُ بالمُحاكاةِ**، فإذا رأى **السالكُ مُشَمِّرًا** في سيْرِه، ضابطًا لأمْرِه، شمَّرَ سائرًا لا يَلْوِي وانْجَمَعَ طائرًا لمَا يَنْوِي.

وإنْ رأى **صاحبَ غَفْلَة** ولهْو، وحُظُوظ وزهْو، خَلَدَتْ نفْسُه إلى الحَضيضِ، وانْتَكَسَتْ انْتِكاسَ المُبِلِّ المَرِيضِ، فخِيفَ على صاحِبِهَا من الحَوْرِ بعد الكوْر، والارتطام بعْدَ الخُروج عن الطوْر.

وإنْ دعتْك إلى مُصاحَبَتِهم ضَرورةٌ تعيَّنَتْ، أوْ مَصْلَحَةٌ دينيةٌ تبيَّنتْ، فلتكنْ بالظاهر، مع المُزَايَلةِ بالباطِنِ، والتحَفظ -غالبًا- منْ مُشارَكتِهمْ لما هُمْ فيه من الانْهِمَاكِ في المُبَاحاتِ، وأنْوَاع المَلاذِّ والشهوات، فلفُضولِ المُباحاتِ دُخانٌ يُؤَثِّرُ في القلبِ، عَشًى يَحْجُبه عن مُطالعَةِ أسْرارِ الغُيوُب.

كَمَا **إنَّ لآثارِ المَعاصِي حُجُبًا** تَمْنَعُ منْ وُصُولِ أمْوَاهِ الإلهاماتِ إلى تجاويف القلوب.

واجْعلِ الثقةَ بالله كَنْزَك، والاعْتِمَادَ عليْهِ عِزَّك، والتوَكُّلَ عليْه حِرْزَك، والرضى عنه فوْزَك.

واتَّخِذِ الأدبَ شِعَارًا، والطلبَ دِثارا، والزُّهْد مَدارًا، والوَرَعَ مِضْمَارًا، والتَّقْوَى جَارًا، والطمَأنِينَة قَرَارًا، والكِتابَ والسُّنَّةَ مِعْيارا، والرجُوعَ إلى الله بالتَّضَرعُّ والابْتِهالِ أنْصَارًا، والرَّجاءَ والخوْفَ عُدَّةً وأوْزَارًا، والذِّكْرَ هِجِّيرَى ليْلا

ونهارًا، تفزْ بالفلاحِ، والفَلَجِ والنَّجَاحِ، وبالله تعالى التوفيق، والهداية إلى أقْوَم طريق.

واللهَ نُسِائلُهُ – لنَا، وَلكَ– العَافِيةَ الدائِمةَ، والنِّعْمَةَ الضَّافيةَ القائمةَ، إنَّه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم القديم"[1].

ج– البطولة الداخلية والخارجية

إنَّ مَرْكزية **"المُقاومة الأخلاقية"** في ذهْنيةِ القوم، وشِعْرِيَّتهم، مثْلما تفاعلتْ بيْن أبَهَةِ **"الفُتُوَّة"**، **ورهْبَنَةِ التصوُّف**، تفاعلتْ كذلك بيْن **البُطولَة الداخلية**، في مُواجَهة نوَازع الذات، ورُعُونة أهْواء النفْس، وبيْن **البطولة الخارجية** أمام تهْديدات الأعْداءِ الخارجيين، في **"البلاد السائبة"**؛ حيث كلُّ كِيانٍ اجتماعي فيها مُطالَبٌ بالدفاع عن نفْسه، ضدَّ الكِياناتِ الأخْرى، المُتصَارِعَة –في غياب السُّلْطة المَرْكَزِية– على مُقوِّمَات الحياةِ الشحِيحة، إذ "الحياة للأقْوى، والضعيفُ لا يعيش"، إلَّا إذا رَضِيَ بهَوَانِ حياةِ التَّابَعِيَّةِ، التي هي –حقيقة– أشدُّ من الموت:

لـيس مَـنْ مَـاتَ؛ فاسْـتراحَ بميْـتٍ إنـــما الميْـــتُ مَيِّـــتُ الأحْيـــاءِ![2]

ومِن هُنا كانت **النزْعةُ الأخْلاقية**، في **مُقاوَمَة الذات** لا تَصِلُ – عنْد القوْم– إلى حَدِّ **"الدَّرْوَشَة"** المهِينة... فيكْفِي– في مثْل هذه البيئةِ **" السائبة"**– أنْ لا تكونَ لِصًّا، ولا قاطعَ طريق، ولا مُعْتَدِيا **"صَائلا"** على غيْرِك.. لكنَّك – في الوقْت نفْسه– لا تتخلَّى عن حَقِّ "الدِّفاع الشرْعِيِّ" عن النفْس... وهكذا كان يتعايشُ تحْت جِلْدِ كلِّ واحدٍ من هؤلاء.. عالمٌ، وناسكٌ، وشاعرٌ، وفارسٌ، وعاشقٌ.. ولعلَّ **خيْرَ مِثلٍ** على تركيبةِ **"كِيميا الشخْصيةِ الكنْتية العجيبة"** هذه، هو **"سِيدِيَّ بن آدبَّ"**، وخصوصا في **رائيته المشْهُورَة**، التي قالها بعد سنة 1882، وكانَ بعْضُ

[1]– هارون: مصدر سابق، ص 100– 103.

[2]– القائل: عدي بن رعلاء الغساني، انظر: **الأصمعيات**: تح: أحمد شاكر، دار المعارف، مصر، ط2، 1963م، ص 152.

رُمُوزِ كنْتَة يَعْتَبِرُونها **نشيدَ الجَماعة**، الذي يُمَثِّلُ **صميمَ هُوِيتها المُرَكَّبة**، ويُلْزِمُونَ المُتألِّقينَ من شبابهم بحِفْظِها وتَمَثُّلِها لاكْتمالِ فُتُوَّتِهم[1]، فرغم سَطْوَةِ الجَمَالِ والحُبِّ، في نفْسية الشاعِرِ العاشقِ، تبْقي لرُوحِ الفَارِسِ، خُطوطٌ حمْراء... تبْدأ عنْد حُدود قَدَاسَة الشرَف، والكرامة، وعلى ضوْء هذه الفلْسفة والرُّؤْية كانت المُقدّمَة الغزَلية مَدْخَلا مُوَفَّقا إلى الفخْر، والانتقالِ من الحُبِّ إلى الحرْب (الطويل):

ألا طرقتْ -كاليُسْر- من بعْدِمَا عسْرِ ... بمَسْرَى يُسَرِّي الهمَّ إمَّا لنَا تسْري
أمَامَةُ.. عنْ وصْلٍ.. لنا.. بعْد هجْرِنا ... فأهْلًا.. بهَا.. منْ واصِلٍ.. بعْدمَا هَجْرِ
مُحَبَّأةٌ.. تَسْبِي الحلِيمَ.. بِمَنْطِقٍ ... هُوَ السِّحْرُ، لا السِّحْرُ المُؤدِّي، إلى الكُفْر
مُعَطَّرَة.. يُزْرِي -علَى المِسْكِ- طِيبُها ... وبالبَدْرِ.. تُزْرِي.. نصْف رابِعَةِ العَشْرِ
بَعِيدةُ مَهْوَى القُرْطِ.. عجْزَاءُ.. خدْلَةٌ ... مُهَفْهَفَةٌ.. بيْضَاءُ.. برَّاقةُ الثَّغْرِ
وكنتُ على الآزَامِ.. مِنْ قبْلِ هجْرِها ... صبُورا؛ فَأفْنَى هجْرُها ساحتيْ صبري
فلمَّا.. رَأَيْتُ الهجْرَ -لا شَكَّ- قَاتِلِي ... علَى أنَّه -لِي دائمًا- بالهَوَى يُغْرِي
تَمَنَّيتُ.. لوْ -في الهَجْر- تَذْكُرُنِي.. ولوْ ... بِهُجْرٍ.. وَمَنْ لِي -مِنْ أُمَامَةَ- بالهُجْرِ؟
أرَاهَا.. تُرِيني المَوْتَ.. عَمْدا وإنها ... لَتَقْصُدُنِي -بالقتْل- تِيهًا، وما تدرِي
أَقَاتِلَتِي.. عمْدًا.. أُمَامَةُ.. بَاطِلا ... جِهَارًا.. كأنِّي لسْتُ.. بالصَّاحِبِ البرِ؟
فقلْتُ لها: مهْلًا.. أُمَامَةُ، قَصّرِي ... عنِ الفَتْكِ بي.. فِعْلَ السَّفاهَةِ.. وَالخُسْرِ
وإلَّا فَإنِّي مِنْ مَعَاشِرَ.. دأْبُهُمْ ... -إذَا وُتِرُوا- التَّشْمِيرُ.. والأخْذُ بالثَّأْرِ
نَرَى الظفْرَ.. بالأعْدَاءِ.. نذْرًا.. وإنَّنَا ... -إذَا مَا نذَرْنا الأمْرَ- مُوفُونَ بالنذْرِ

[1]- كانت هذه القصيدة من عناصر الفتوة، مثلما كان ابن حزم الأندلسي يقول: "من تختم بالعقيق، وقرأ لأبي عمرو، وتفقه للشافعي، وحفظ قصيدة ابن زريق، فقد استكمل الظرف". انظر: صلاح الدين الصفدي: **الوافي بالوفيات**، تح: أحمد الأرناؤوط، دار إحياء التراث، بيروت، 2000م.

د- مقاومة الجهل والجبن: جدل الكتاب والركاب

لقد كانتْ **نظْرَةُ مُجْتَمَع "البلاد السائبة"** إلى طرفيْ **جَدَلِية السيْف والقلَم** نظْرةً حَدِّيَّةُ ("إمَّا.. و.. وإمَّا)؛ بحيْث إنَّ منْ أخَذَ **"الكِتاب بقوَّةٍ"**، لا **"يَتَأَبَّطُ شَرًّا"**، أيْ سيْفًا، ومن تَنكَّبَ **"المدْفعَ"**، تَنكَّبَ عن **"اللوْح"**، هذه هي القاعدة العامة، التي اقتضاها **تَوَازُنُ الرُّعْب** بيْن السُّلْطَتَيْن: **"الدِّينية"**، و**"العَسْكَرية"**، حتى لا تُهَيْمِنُ إحْداهما على الأخْرى، في مُجْتَمَعٍ **"سائبٍ"**، تُرَوِّجُ فيه طبَقَتَا **"الزوايا"** و**"العرب"** معا: أنَّ الحياةَ لا تسْتقيمُ إلاَّ تحْت **"كِتَابٍ"** أو **"رِكَابٍ"**، غيْر أنَّ القاعدةَ دائما لا تسْتَغْنِي عن اسْتثناءاتٍ تُصَحِّحُها، وقدْ كانَ **المُجْتَمَع الكنْتي**، من بيْن منْ كسَرُوا صَرَامَة حَدِّية هذه الرُّؤْية؛ فغلبَ عليْهم **"الجَمْعُ بيْن الأخْتَيْنِ"**: قوَّتَيِ **"السَّيف"** و**"القلَم"**، وليست أسْرة **"أهل آدبَّ"** بِدْعًا في ذلك، **فسيدي الأمين بن محْمد** بن طالب أعمر بن خيري البوسيفي، كانَ **قاضي أولاد بوسيف "الخضْر"**، **المُعْلِنَ بشِعْرِيَّتِه شَرْعِيةَ الحرْبِ الدفاعِية** عن حُرُمَاتِ الأهْل، والمُتَمَوْقِعُ في طلِيعة فُرْسَانِ القوَّةِ الضارِبَةِ، والمُسْتَشْهِدُ فِي الخُطُوطِ الأمَامِيَّةِ، في الهُجوم/ الدفاعي، وقد ترَكَ ابْنَه الأصْغَر **عبْد القادر "آدبَّ"**، في هذه البيئة الحرْبية، ذاتِ الظروف الحياتية الصعْبة، غيْر المُوَاتِية لطلَبِ العِلْم، وهذا ما يَسْتَحْضِرُهُ ابْنُه سيدي محمد **"سِيدِيَّ"** رِوَايَةً عنْ والِدِه، حينَ يَرُدُّ علَى أخِيهِ": **محمد لحْوار"**، عنْدما اسْتَأْذَنَه في الرحْلة لطلَبِ العِلْمِ، فيقول له، في تَضاعيفِ رِسالتِه الجَوابِية: **"فتْح القهَّار في الرَّدِّ على محمد لحْوار"**:

"إذْ قد أدْرَكْتُ والدَنا رضي الله عنه، فقد حدَّثَني – رضْوانُ الله عليْه – غَيْرَ ما مرَّة –وأنتَ شاهدٌ– أنَّه نَشأ فيما ينْشأ فيه مِثْلُه من أطفال أهْل الحرْب، من مُعاناةِ المَعِيشةِ وكدِّ العِيالِ، في شظَفِ العيْش، وشُغْلِ البَال، مُوَافَقَةَ مَسِيرِ إخْوَتِه طَلَبَةً، فمَا زالَ كذلك حتى بَلَغَ، وهو على تلك الحالة، لم يكتسبْ عِلْمًا، ولمْ يُطالعْ...".

وهنا يتأطر **انحياز القوم للعلم اللدني الموهوب** "من لدن الله"، ومقاومتهم الأخلاقية **للعلم الكسبي**، من منطلق اعتباره أصبح فارغا من معناه، على يد **من يسميهم سيدي** بن آدب -مُتَقَصِّدًا- **مُتفَقِهي** العصْر و**مُتَصَوِّفِيه**، مستشهدا على جدوائية العلم الوهبي، بأن **إجَازَةَ الشيخ سيدي** بن المختار الهيبة الأنتشائي، لعبد القادر **"آدبَّ"** المُشَار إليْها سابقا، في كلِّ الأوْرَادِ القادريةِ، والعُلومِ الشرْعيةِ، بأصُولِها، وفُرُوعِها، ومَقاصِدَها، بعْدَ سِتَّةِ أشْهُر، من مَقامِه مَعَه، **خيْرُ دليلٍ على ما بَلَغَه هذا الرَّجُلُ**، من مَعارِفَ لَدُنِّيَّةٍ، لمْ يُوجِفْ -عَلى طَلَبِها- منْ خيْلٍ، ولا رِكَابٍ.. ثم يواصل محاولة إقناع أخيه **محمد لحْوار** بترْك الرحلة الخارجية في طلب العلم، معتبرا أنَّ العِلْمَ السائدَ يوْمَها **علْمٌ دِنْيَوِيٌّ**، لا يُرادُ به وجْه الله، ولذلك فهو من **"العلْم غيْر النَّافِع"**، ولا يَسْتحِقُّ عناءَ طلَبِه، وأنَّ **"آدبَّ"** رَغْمَ الظروفِ السيِّئة المُشار إليها آنفا، قد تضلَّعَ بـ **"العِلْمِ اللدُنِّيِّ"** وهو لم يبرحْ خِدْمَةَ والِدَتِه والبرِّ بأهْلِه، مُعْتَمِدًا على قاعدةٍ ذهبيةٍ، آمنَ بها، وهي: **"التقْوى"** فأعطتْه أُكْلَها ضِعْفيْن بأمْرِ ربِّها، حيث عَمِلَ بما عَلِمَ؛ فأوْرَثَه اللهُ عِلْمَ ما لمْ يَعْلَمْ، واتَّقى اللهَ؛ فعَلَّمَه اللهُ، و**"جَعَلَهَا كلِمَةً باقيةً في عَقِبِه"**، فمِنْ حضْن ذات القاعدة/ المَدْرَسَةِ تخرَّجَ **"سيدِيَّ"**، **وبقيةُ إخْوَتِه**، وللبَرْهَنَةِ علَى صِحَّتَها يقتَبِسُ منْ أقْوالِ العُلماءِ في هذا السياق: (**ليس العالِمُ** منْ يَحْفَظُ، وإلا لَصَارَ جاهلا، **وإنَّما العالِمُ** الذى **يأخذُ علْمَه من ربِّه**، أيّ وقْتٍ شاءَ، بلا تحْفيظٍ، ولا درْسٍ، وهذا هو **العالِم الرَّبّاني**، وإلى مِثْلِه الإشارةُ بقوْله تعالى: چ ڈ ڈ ڈ ژ چ[1]، مَعَ أنَّ **كلَّ عِلْمٍ من لَدُنْهُ**، ولكنَّ **بعْضه بوسائطِ تعْليم الخَلْق**، ولا يُسمَّى ذلك عِلْمًا لدُنِّيًا، بل **العلْمُ اللَّدُنِّيُّ** الذى **ينفتحُ من سِرِّ القلْب**، من غيْر سببٍ مَألوفٍ من خارج. وبالجُمْلَةِ، فالتَّقْوَى رَأْسًا، والعِلْمُ الناشِئُ عنْها، إنَّما يُنالانِ بظلْف النفْس عن شَهَواتِها ومَألُوفاتِها، مع الحَكَمَة عليْها، واتِّهامِها في مَنْهيَاتِها ومَأمُوراتِها، إذْ هي كما قيل: كالدابة التي تُرَاضُ، أمَا ترَى أنَّك إنْ ضيَّقتَ عليها بالحَكَمَةِ والزمام والضرْب لانتْ؛ فانقادتْ إلى مُرادِك، ووجدتَ

[1] - **قرآن كريم**، سورة الكهف، الآية: 65.

منْها السيْر الفسيحَ، وإذا تركتْها تتفسَّحُ في مَراتِعها، حتَّى سمِنتْ، ركضتْ بكَ، فألْقتكَ عن ظهْرها سالما، أوْ مَيتا، أوْ مَعْطوبًا....).

ولا شكَّ أنَّ القارئَ سوْف يتذكَّرُ أنَّ هذا **المُعْجَمَ** ذاتَه، هو مَا طغَى على **قصيدة "سيدِيَّ"** الآنفة، التي سَاقها في توْجيه وتْربيةِ أخيه الآخر: **الشيخ أحمد،** الذي انْصاعَ لمنْهج **"المَدرَسة الآدبيَّة"** تلك، فنالَ نصِيبَه من مِيرَاثِها **"الوَهْبي/ اللَّدُنِيّ"**، عِلْمًا، وعِرْفانا، وسُلوكا، وأدَبًا، وإبْداعا، وفُرُوسية، وتمْكينًا، فسرْعانَ ما أصبحَ - بعْدَ خِلافَتِه لأخِيه "سيديَّ- **شخصيةً مرْكزيةً في فضائه الواسِع،** ما بيْن البَراكنة، وتكانتْ، والحوْضيْن، وغيْرها، فكان شيْخًا "رُوحِيا"، له مُريدُوه، **وشيخا "زمَنِيا"** له سِجِلُّه الإداري/ "كنَّاشُه" الخاص، دون فخِذه، أحْرى قبيلته الكبيرة، لأَن أغْلَبَ شيوخ وُزعَماء قبيلته -في فضائه- كانوا من مُرِيديه؛ فاسْتحالَ أنْ ينْضَوِي تحْتَ ظِلِّ زَعَامَاتِهم، كما أنَّه كانَ **صاحبَ مَكانَةٍ عِلْمِيَّةٍ، وشِعْرِيَّةٍ بارزة،** وهنا نَجِدُ الشاعرَ القدير: **مُحمد عبد الله بن عبيد الرحمن العلوي،** في **مرثيته** الرائعة **للشيخ أحمد** هذا، مُرَكِّزًا -في هذا المَقْطَع- على موسوعية مَعارفه (من الطويل):

قد أغْمَدَ منْهُ الموْتُ سيْفَ هِدَايَةٍ ... وَلوْ شاوَرَ الموْتُ الهُدَى لَيْسَ يُغْمَدُ
قد أنْصَفَتِ العلْيَاءُ إذْ بَعْدَهُ غَدَتْ ... قَرِيحَةَ جَفْنٍ.. لَيْلُهَا ليْس يرْقدُ
وَمَا زَالَتِ التَّقْوَى ادِّكَارًا لِدَهْرِهِ ... مُفَجَّعَةً.. ثَكْلَى.. تَقُومُ.. وَتَقْعُدُ
بَكَتْهُ المَعَالِي.. والمَعَانِي وبَعْدَهُ ... سَيَمْكُثُ عِلْمُ الشَّرْعِ، وهْوَ مُسَهَّدُ
تَزَوَّدَ خَيْرَ الزَّادِ.. طُولَ حَيَاتِهِ ... وَإِنَّ التُّقَى خَيْرُ الَّذِي يُتَزَوَّدُ
وتَشْهَدُ أرْبَابُ المَقَامَاتِ أنَّه ... - عَلَيْهُمْ- لهُ التَّقْدِيمُ.. والحَالُ يَشْهَدُ
لقد أفَلَتْ شَمْسُ العُلُومِ بِفَقْدِهِ ... وفُلَّ حُسَامُ المَكْرُمَاتُ.. المُهَنَّدُ
وحُلَّ لِوَاءُ الدِّينِ يوْمَ وَفَاتِه ... وَإِنِّي لأَحْجُو أنَّهُ ليْسَ يُعْقَدُ
فَيَا وَيْحَ مَا سَنَّ الجُنَيْدُ لِحِزْبِهِ ... وَمَا قدْ رَوَى أهْلُ الحَدِيثِ.. وَأسْنَدَوا

أجل، **فكلُّ المَكاسِبِ، والمَواهِبِ،** هي **"لَدُنِّيَّة"** عند هؤلاء القوم، فـ **"سيديَّ بن آدبَّ"**- مثلا- يُعْنونُ أحدَ مؤلفاتِه: **"فتْح القهَّار، في الرَّدِ علَى محمد الحوار"**، والآخر: **"فتْح الجليل في الردِّ على الدجاجيل"**، حين ينتقدُ في الأول من يُسَمِّيهمْ مُتَفَقِّهَة العصْر، لسيْطَرَة المَقْصَدِيَّةِ الدنْيَوِيّة، عليْهم تَعَلُّما، وتعْليما، ويَنْتَقِدُ في الثاني دَجَاجِلَةَ المُتَصَوِّفَة، وغيرهم، كما أنه يعتبر كل فَخْرٍ وتمْكينٍ لجَمَاعَتِه هو أيضا مُعْطًى لدُنِّيا من الله، حيث يقول في مَقطع من رائيته الآنفة المُقدِّمَة، والتَّخَلُّصِ، متحدِّثا بضمير الجمْع الكنتي:

ونحْنُ بنُو الكنْتيّ-لا فخْرَ- خيْرُ مَنْ - وَحَقِّ إلـهِ العـرْش- يمْشِي- عَـلَى
**كِـرَامٌ.. نَمَتْـنَا -من مَعَـدٍّ- سَرَاتُهـمْ العَفْـــ

ثم يُعَرِّجُ على الفخْر بازْدِوَاجِيتِهم، في امْتِلاكِ قُوَّتَيْ: " الكِتَابِ والرِّكَابِ":

ونحْنُ بُحُورُ العِلْمِ.. قـدْما.. وكلَّنـا لدَى الحرْبِ كالليْثِ الهزَبْرِ أبِي الأجْرِ
لنا شَـاهِدٌ -فِـيمَا ادَّعَيْـنا- مُصَـدّقٌ غَدَاةَ الْتَقَيْنَا -وَالأَعَـادِيّ- بالغـمْرِ
غَـدَاةَ زحَفْنـا، في خَمـيسٍ، عَرَمْـرَمٍ إليْهِمْ.. جِـرَاءً.. عنْد مُنْصَدعِ الفجْرِ
بجُرْدٍ، عَنَاجِـيجٍ، يَعَابِيـبَ، شُـزَّبٍ عَلَى زُمَرِ الأعْـدَاءِ.. مُعْتَادَةِ الظَّفْـرِ
عليْهَا كُمَاةٌ، من بَنِـي سَـامَ، عَـوَّدُوا جَـوَامِحَـها الكَـرَّ، المُـؤَذِّنَ بـالظفْرِ
جَحَاجِحُ بُسْلٌ كالأُسُودِ لدَى الوَغَى وُجُوهُهُمُ- في الأزْلِ- كالأنْجُمِ الزُّهْرِ
بأيْـديهمُ.. أُولَى المَـدَافِعِ.. مُخْرِجًـا بِمَا قدْ حَوَتْ أسْخَى من البحْرِ والقَطْرِ
إذا سَـدَّدُوها.. فِي نُحُـورِ عـدَوِّهمْ أصابَتْ، فَلَـمْ تُخْطِـئْ -لهـمْ- ثُغْـرَةَ

وإذا كان **"سيدِيَّ بن آدبَّ"** يتكلَّمُ هنا باسْم الضمير الجمْعي لقوْمه، واصفا إياهم بازدواجية **"الكتاب والركاب"** فالحقيقة أنَّه لم يكنْ ذلك الشاعر الذي يصفُ المَعاركَ منْ خارجِها، أوْ يَتَمَثَّلُها، وهو عنْها غائبٌ، بلْ كانَ هو وإخْوتُه **فرْسان الميْدان**، المُسْتَبْسِلِينَ في **الدفاع "الشرعي"** عن حُرُمَاتِ جمَاعتهم، حسبَ **المَرْجَعِيةِ الأخْلاقيةِ لمُقاوَمَتِهم الحربية**، التي كان قوْمُهم يحرصون -في زعْمِهم- على أنْ لا يَتَخَنْدَقُوا خارِجَها، ظُلْما، وعُدْوانا، وحِرَابَة، ولُصُوصِية.. حسَبَ ما تفْرضُه -أحْيانا- طبيعةُ **"البلاد السائبة"**، فقد كان قومهم في مَهَبِّ العداوات الشاملة، حسب ما تنضح به نصوص هنا، وفصوص هناك، حيث يقول الشاعر العالم: **محمد بن باب** بن باب أحمد بن الشيخ سيد المختار الكنتي، داعيا الله لـ **أولاد بوسيف عموما:**

فبــارك الله فــيهمْ، ثــمَّ أيَّــدَهُمْ على العُـداة.. وجُـلَّ النـاسِ أعْـدَاء

ثم يمدحهم بالجمع بين بطولتي الحرب والسلم، حيث يقول:

بنــو الكــريم أبي ســيف ألِبَّــاءُ وهــمْ لمـنْ صَـحِبُوا -حَقًّـا- أَوِدَّاءُ
أحْـوالهمْ في الحـروب غـير خافيـة والســلم فيــه لهــمْ ذكْــرٌ وأنْبــاءُ
وهــم عبيــدٌ لمــن رامــوا تَعَبُّــدَه وأسْـدُ غـابٍ -لمـنْ عـادوْه- ضُرَّاءُ

وهذا ما **يصف** به **شاعر** آخر **كناتة** جميعا:

بنُــو الحــرْب، عنْــد الحــرْب، أسْــدٌ بواسِــلٌ
ضَــوَارٍ، تخــافُ النَّــاسُ أنْيَابَهــا العُصْــلى
وفي السّــلْم، عنْــد السّــلْم، بــيضٌ وُجُــوهُهمْ
تُضِــيءُ الــدُّجَى، كالبَــدْر في الصّــحْو، إذْ هَــلَّا
إذَا لبِسُــوا أَدْرَاعَهُــمْ؛ فــضَرَاغِمٌ
وإنْ لبسُــوا تِيجَــانَهُمْ؛ فهــمُ الجُــلَّا

وبالازدواجية في **السيف والقلم** يمدح **سيدي بن آدب أهل الشيخ سيد المختار** في أزواد:

أزْكـي البَرِيَّـةِ أعْراقًـا.. وَأعْـدَلِهِمْ قَسْما.. وأفْضَلِ مَنْ صلَّى، وَمَنْ صاما
بـلى، وأجـودهمْ كفًّـا، وأقْـدَمِهِمْ في الحرْب.. والسِّلْم.. أسيافا.. وأقلاما

وهذا **الشيخ أحمد** يَرْثِي شقيقَهما **محمد لحْوار بن آدبَّ**، مُؤبِّنًا فيه كلَّ القِيم الفاضلةِ، ناصًّا على ثنائية "**السيْف والقلم**" خصوصا:

العِلْمُ، والحِلْمُ، حَنَّا.. حنَّتْ الحِكَـمُ والحُكْمُ.. أنَّ.. وأنَّ الجُودُ.. والكَرَمُ
وكـلُّ مُعْضِـلَة.. طَمَّـتْ.. بِـدَاهِيةٍ حَنَّـتْ.. كـذا السـيْفُ- يـا لَلنَّـاسِ-

وهنا نجد شاهدا على **شجاعة أهل آدب** جميعا **وسيدي** خصوصا، في قول مادحه:

نجْـل آدبَّ مَـنْ حـوَى كـلَّ فخْـرٍ وعَـــلَاءٍ، وسُـــؤددٍ، قـــدْ أبَنَّـــا
بـتُراثٍ مـن سَـادَةٍ حـلَّ فـيهمْ مِـنْ قـديمٍ، وفـيهمُ قـد تَأنَّـا
هُـمْ لُيُـوثُ الحُـروبِ.. إذْ فَـرَّ أبْطـا لُ الـوَغَى، والجميـعُ بـالنفْسِ ضَـنَّا

كما مدحه بذلك **محمد بن الحابوس**، الملقب: **محمد مِر**" بترقيق الراء:

وإنْ صـــالَ الفـــوارسُ في قتـــالٍ يَـــرُدّ الصـــائلينَ عـــن المَصـــالِ
أيـا رأسَ الجَحـاجِحِ مـنْ قُـرَيْشٍ أُبَـاةِ الضـيْمِ إنْ دُعِيَـتْ: نِـزَالِ
تَخَـيَّرْ مـا ابْتغيْـتَ مـنَ المَعـالِي علـوْتَ عـلى ذَوِي الهِمَـمِ العَـوَالِي
ولا تخْـشَ المُنَـازِعَ مِـنْ رِجـالٍ ولـــو جـــاءُوا بـــأثْمَانٍ غَـــوَالِ

وفي رثاء **الشيخ أحمد بن آدب** نفسه من طرف ابن عمه: العالم القاضي الشاعر: **محمد بن الدي** بن أحمد بن سيد الأمين بن محمد الطالب اعمر بن خيري، يركز على هذه الثنائية في منظومة قيم المرثي:

سَــلِّمْ أمــورَكَ للمُهــيْمِنِ الحَكَــمِ مضــتْ بَقِيَّــةُ هــذا المجْـد وَالكَـرَمِ
والشُّكْر، والصـبْرِ، والخُلْـقِ الجميـلِ، حُسْنِ الوفَـاءِ بحَـقِّ النَّقْـدِ والسّـلَمِ
والعِلْم، والحِلْمِ، والسِّرِّ المَصُونِ عَلَى صَوْنِ السَّرِيرَةِ، مِنْ زيْـغٍ، ومـنْ لَـمِ
والـنَّظْمِ، والنَّثْـر، فِي أعْـلَى بَلَاغِتِـهِ والمِـدْفَعِ، الـدَافِعِ، المِقْـدَامِ، والقَلَـمِ

وقد **تواطأ مادحوهم** من الشعراء على إبراز ازدواجيتهم في **بطولة القلم والمدفع**، ما يعني أن ثنائية الشجاعة والبلاغة مكينة، متجذرة في منظومة قيم هذه الأسرة، فهذا الشاعر **محمد محمود** بن محمد سيدنا الملقب **"أفافه"**، يمدح **حَمَّ بن سِيديَّ بن آدب**، فيقول، بعد وفاة عمه الشيخ أحمد، فيما يبدو:

لـئِنْ غـابَ بـدْرُ الـدينِ، والحِلْـمِ، وأصبحَ كَـسْرُ الدينِ لـيسَ لـه جَـبْرُ
والنَّـــــــــــــــــــــدَى همُ البَـدرُ مهْـمَا غـابَ يَخْلفُـهُ البَـدْرُ
فــ حَـمَّ بْـنُ سِـيدِيَّ المُعَـلَّى كمِثْلِـه وفي الكتْبِ عنـد العـالِمين لـه الأمـر
لـه الأمْـرُ عنـد العـارفين جمـيعهمْ وفي البَذْلِ في يوْم العطـاءِ لـه الفخـر
له الفخر في يوم اللقاء لـدى الـوغى ومـا كتبـتْ يُمنَـاهُ تزْهـو بـه الزُّبْـرُ
وما وهبـتْ كفَّـاه يزْهـو بـه النَّـدى كـريمٌ، وَهُـوبٌ لا يُغـيِّرُه الـدهْرُ
هُمَـــامٌ، أبِيٌّ، لا يُضـــامُ حريمُـــه ولا هو في الــضرَّاء يُجزعـه الــعُسْر
فلا اليُسْـرُ في الـسَّرَّاءِ يُطـربُ نفْسَـه قد امْسى من المَعْـرُوفِ مَنْزِلُهَـا قفْـرُ
بمعْرُوفــه أحَيــا المُــروءةَ بعْــدما وصاحَبَهُ - فـيما توَجَّهَـهُ- النَّصْـرُ

هـ- مقاومة الشح: قتل البخل بسيف البذل

إنَّ وصْفَ **"التكَنْتِي"**، الذي وُسِمَ به هؤلاءِ القوْم، عبْر التاريخ، كان-في أصْل إطْلاقِه- يَخْتَزل مَنْظُومَةً من القِيم الفضيلة النبيلة.. تُرَادِفُ **"اسْتَفْتِي"** باللهْجَة الحسَّانية، أو **"الفُتُوَّة"** بالفُصْحَى، لكنَّ **"الكرَمَ/ السخاءَ"** كانَ أبْرزَ تلك **المَنْظُومَةِ الأخلاقية**، وألْصَقَها برُوح **"التكَنْتِي"** مَفْهومًا، ومُصْطَلَحًا، وهُوُيةً،

وذِهْنِيةً.. وقد كانَ لأهْل **"آدبَّ"**.. دوْرٌ بارزٌ في ترْسيخِ وإشاعَةِ تلك المُثُلِ عُموما، كما رأيْنا، وهذه خُصوصا، كما سنرَى.

يقول آدب في تشخيصه حاجاته الروحية لشيْخه الشيخ سيدي: «والغضبُ الذي ذُكِر- سيدي- آنِفًا، وَغَيْرُه من الأوصاف المذمومة شرْعا وعادة- طِباعٌ غريزية، والطباعُ تَزولُ قبْلها الجِبال، من المَحَالّ، كما روي: إذا سمعتَ بجبلٍ زالَ عنْ مَحلِّه فلا تنكرْ، وإذا سمعتَ بطبْعٍ زالَ عن صاحِبِهِ فكذِّبْ،

لكن الله يزيل الأشياءَ من مَجالِها بخَلْقِ أضْدادِها في مَحَالِّها، فيزيل نار الشُّحِّ ويُخْمِدُها بمَعِينِ الإيمان إذْ لا يجتمعان، فكُلَّما تزايدَ نُورُ الإيمانِ، ضَعُفَ **سُلْطَانُ الشُّحِّ**، حتَّى يضْمَحِلَّ بثلْجِ **اليقينِ**، و**المَعرِفَة**، و**التمْكين**، فيَتَحَصَّلُ **السَّخَاءُ**، ثمَّ **الجُودُ**، ثُمَّ **الزُّهْدُ**، ثمَّ **الكرَمُ**»[1].

ويبدو أن **الرجل قد وصل** في درجات الإيمان، مستويات **"ثلج اليقين"**، و**"المعرفة"**، و**"التمكين"**، حتى **اضمحَلَّ سلطانُ الشُّحِّ** على نفسه، وترقى إلى أوْج الكرم، متجاوزا درجات **"السخاء"**، و**"الجود"**، و**"الزهد"**، كما يلاحظ أن هذه القيمة الفاضلة، كانت من مورثاته الباقية في الأسرة التي بَصَمَهَا باسْمِه، وطبَعَها بمنظومة قيمه، وإذا كان **الكرم** رأس هرم القيم **"الكنتية"** عموما، فإنه يعتبر - أيضا- رأس هرَم المُثُل **"الآدبِّيَّة"** خصوصا، حيث اشتهرت به هذه **الأسرة** - ربما- أكثر من غيره.

ولربما كان **"سِيدِيَّ ولد آدبَّ"** خير ناطق باسم الجماعة والعائلة في المَقام الفخْري، حيث يقول فِي قصيدتِه السابقة، باسْمِ قوْمه جميعا:

لنا العِزُّ.. لا بالمَالِ.. والفخْرُ.. لا بِـه إذا صـــانَه الأرْذالُ للعِــزِّ والفخْــرِ
مَكاسِبُنا الجَـاهُ.. الوَجيـهُ.. ومالُــنَا مُعَدٌّ.. لديْنا.. للمَحامِـدِ.. والشُّـكْرِ

[1] - هارون: مصدر سابق، ص 97- 98.

وإذا التمسنا شاهدا على ما افتخر به **سيدي بن آدب**، فهذا شاعر يمدحه هو شخصيا، فيقول:

طـال بثِّـي مـنْ نـأي عَـزَّةَ عنَّـا ... ليْتَنِـي مِنْهـا نِلْـتُ مَـا أتمنَّـى
كمَنَـالِ الحَاجَـاتِ عـافٍ تـوَخَّى ... وَجْـهَ سِـيدِيَّ فـوْقَ مَـا كـانَ ظنَّـا
ومَنَـالِ الحـافِي بـه قـيْسَريًّا ... يرْتَعِـي مـن رياضِـهِ كـلَّ غَنَّـا
نجْـل آدبَّ مَـنْ حـوَى كـلَّ فخْـرٍ ... وعَـلَاءٍ، وسُـؤددٍ، قـدْ أبَنَّـا
بـتُراثٍ مـن سَـادَةٍ حـلَّ فـيهمْ ... مِـنْ قـديمٍ، وفـيهمُ قـد تَـأنَّى
هُـمْ لُيُـوثُ الحُـروبِ.. إذْ فَـرَّ أبْطـا ... لُ الـوَغَى، والجميـعُ بـالنفْسِ ضَـنَّا

وفيه أيضا يقول **محمد بن الحابوس** الآنف الذكر:

وقَامْـتْ مـنْ سَـمَاحتِه شُـهودٌ ... عـلى أنْ لا يُسـابَقُ في مَجَـالِ
يُعَـرِّضُ نفْسَـه عـنْهمْ مجِنًّـا ... يقـاسِي النائبـاتِ بكـلِّ مـالِ
سَـجاياهُ التَّعَـرُّضُ في الـدَّوَاهِي ... إذا فَـرَّ الكـريمُ مـن الرِّجَـالِ
تَظـنُّ الوافـدِينَ أمَـامَ بيْـتٍ ... رِفَـاقَ الحَـجِّ في زمَـنِ الهِـلالِ
يجـودُ علـيْهمُ بسـجالِ مـالٍ ... تضـنُّ بـه اليمـينُ عـن الشـمالِ
ولـوْ خافـتْ ظنـونُ النـاسِ فيـهِ ... لَمَـا هـمَّ الوُفُـودُ بِالانْتِقَـالِ

ولعلَّنا لا زَال يتردَّدُ في أذانِنا **حِوَارُه الشعْريُّ الترْبَوِيُّ** مَعَ أخِيه **الشيخ أحمد**:

أُحِـبُّ الـذى احْبَبْـتَ غـيْر مُحَـرَّمٍ ... وأبْغَضُ ما أبْغَضْتَ بالحِسِّ والمَعْنَـى
وأبْذُلُ مَالِي.. فِي رِضَـاكَ.. وكـلُّ مَـا ... حَمَيْتُكَ.. لمْ أمْنَعْهُ حِرْصًا.. وَلا ضَـنَّا

ويبْدُو أنَّ **الشيخ أحمد** المُخاطَبَ، ليْس أقلَّ مُقاوَمة لشُحِّ النَّفْسِ، وبُخْلِها من أخِيه، فهو نفْسُه **يُراسِلُ أحَدَ مُرِيدِيه، مُوصِيا إيَّاه**، بالتَّحَرُّرِ منْ حَبائل الدُّنْيا، بقوْلِه:

(**وما وَجَدْتَ مِنْهَا فاجْعَلْهُ بيدِكَ، وأخْرجْه من قلْبِكَ**، إذْ بُعْدَ مَا بيْن **الدنْيا** و**الآخِرة**، بُعْدُ ما بيْن المَشْرِق والمَغْرب، **ولا يَصِحُّ إمْساكُها لسَالكِ طريقِ الآخِرَة**، إلا بعْد القدْرة على إمْسَاكها فِي يَدِه، وإخْرَاجِها منْ قلْبِه، فإذا بَلَغَ ذلك، فلَهُ أنْ يُمْسِكَها، وَيفْعَلَ فيها ما يشاءُ، ويتصرَّفَ فيها كيْف شاءَ؛ لكوْنها صارتْ لا لُمْباهاةٍ، ولا تكاثُرٍ، ولا تفاخُرٍ، بل لعِفَّةِ النَّفْسِ عنِ السُّؤالِ، والنفقَةِ علَى العِيال، وتأديةِ ما فرَضَ اللهُ فيها من الحُقوق).

وإذا كان **الشيخ أحمد** لم يتحدَّثْ عنْ كرَمِه الشخْصِي، فإنَّ والدَه "**آدبَّ**"، قد نابَ عنْه، في هذا السياق، **مَتَنَبِّئًا** له -منْذ طُفُولَتِه المُبَكِّرَة- **بسَخائِه المَادِّيّ والرُّوحِيّ**، "تخْويلا"، و"تقْديسا" لكلِّ منْ سيَحُجُّ حضْرَتَه، منْ رُوَّادٍ، ومُرِيدِينَ، قائلا:

إليْـه يَسْـعَى رواد الحَـاجِ مـنْ بُعُـدٍ فيُفْلِحُـونَ بتخْويـلٍ، وتقْـديسِ

كما **أنَّ الوالدَ**، أكَّدَ أيْضا مَا سَيَؤولُ إليْه ابْنُه هذا منَ الكرَم، وكلِّ الفَضائِلِ الأخْرَى:

الشيخ أحمدُ.. فخْـرٌ.. حـين يُفْتَخَـرُ مـا إنْ يُشـابِهُه بحْـرٌ.. ولا مَطـرُ
بجُودِ يُمْنَاهُ.. جـادَ البـاخِلُونَ.. كـما -مِنْ راحتَيْهِ- بُحُورُ العِلْـمِ تَنْفَجِـرُ
معلِّـمٌ.. عـالِمٌ.. علَّامَـةٌ.. عَلَـمٌ قد فـاقَنا.. وكذا مَـنْ قبْلَنـا غَـبَرُوا.

ولكيْ نتأكَّدَ -نَصِيًّا- منْ أنَّ فِرَاسَة "**آدبَّ**" لمْ تَخِبْ في ابْنِه، سنسْتحْضِرُ شاهِدا من غيْر أهْلِه، هو الشاعرُ محمد عبد الله **بن عبيد الرحمن العلوي**، صديقَه الذي رَثَى فيهِ كلَّ مَكْرُمَةٍ وفَضِيلةٍ:

فشَـلَّتْ يَـدُ المـوْت، التِـي مَـدَّهَا إلى تَقِـيٍّ، نَـقِيٍّ، لا تُضَـمُّ لَـهُ يَـدُ
مَضَـى منْه مِثْـلافٌ، فَـرَائِصُ مَالِـه مَدَى الدَّهْرِ- مِنْ خوْفِ التفَرُّقِ تَرْعُدُ

وغَيْثٌ عَلَى أَهْلِ الحَوَائِجِ، قَدْ هَمَى ... ولكنَّه يهْمِي، ولمْ يَكُ يُرْعِدُ
فَتًى، قدْ بَكَتْه المَكْرُماتُ، ولمْ يَكُنْ ... بَكَاهُ طَرِيفٌ، يَوْمَ بَانَ، ومُتْلَدُ
هُمَامٌ، إذا مَا قَالَ وَاصِفُ فَضْلِه: ... مُضَاهِيهِ، لا يُلْفى؛ فلَيْسَ يُفَنَّدُ
هُمَامٌ؛ بِهِ شَمْلُ الفَخَارِ؛ مُجَمَّعٌ ... ولكنْ -بِهِ- شَمْلُ الثَّرَاءِ مُبَدَّدُ
فيَا هَفَ أَضْيَافِ الشِّتَاءِ! لقَدْ عَلا ... - عَلَى مُكْرِمِ الأَضْيَافِ- تُرْبٌ، مُلَبَّدُ!
ومَنْ لِليتامَى، والأيَامَى، يُنِيلُهمْ ... - إذَا اسْترْفَدُوا مِنْ رِفْدِهِ- مَا تَعَوَّدوا

وعلى هذه الشهادة بكرم **الشيخ أحمد** وسخائه، يتواطأ مادحوه، ومُؤَبِّنُوه، فهذا القاضي العالم **عبد الرحمن بن محمد بن بَلَّال الجمَلِّي**، يقول في رثائه من الوافر:

لعمرك إنَّ مَنْ تُخْطِي المَنايا ... لسَوْفَ تَصيدُه بيْنَ الحَوَايا
يبيتُ المَرْءُ يذهبُ في عَمَاهُ ... إذا ما منْهُ أَذْوِرَةٌ خَلايا
فلو أنَّ المَنِيةَ بالمعالي ... عن الأشْراف تُدفَعُ، والرَّزَايا
لكانَ الشيْخُ أَحْمَد ذا حياةٍ ... مُخَلَّدَةٍ، إلى بعْثِ البَرَايا
إمَامٌ، كانَ للحاجاتِ مَأْوَى ... إليهِ الجُرْدُ تُعْمَلُ والمَطَايَا
فكمْ منْ مُهْتَدٍ أَهْدَى سريعًا ... وكمْ من مُعْتَدٍ أَوْلَى بَلايا
وكمْ في الغيْب أَخْبَرَ في صِبَاهُ ... وآثرَ بالحَوائجِ والعَوَايا
وكمْ -من غيْرِ قُلٍّ- باتَ يدْعُو ... خَمِيصَ البَطْنِ، أَضْلُعُه حَنَايَا
تَخافُ العُرْبُ منْهُ، معَ النّصارَى ... وتَبْعَثُ من مَخافَتِهِ الهَدَايا
تَزَوَّدَ مِنْ دُنَاهُ بِزادِ تقْوى ... ومَا عَمِلَ الجَرَائمَ والخَطايا
عفَا عنْهُ المُهيْمِنُ وارْتَضاهُ ... وأَضْحَكَ -عِنْدَهُ- مِنْهُ- الثَّنَايا
وبَارَكَ في الخَليفةِ منْ بَنِيه ... وأَوْرَثه الطبائعَ والسَّجَايَا
وآزرَه، وإخْوَتَه، بنصْرٍ ... وعِزٍّ، فِي الضَّحَايَا والعَشَايَا
على طهَ الأمينِ -وآلِ طه ... ومَنْ يُوصِي به- أَزْكى التَّحايا

وعندما يستشعر أحد الشعراء الرغبة الملحة **في شرب الشاي النادر** يومها بين العامة، لا **تتجه بوصلة طلبه** إلا إلى **الشيخ أحمد بن آدب**، فيقول شاكيا إليه حالهم:

مُرُوا مَنْ يَجِي نَحْوَ المَشايخ أنْ يجِي ... بفرْحَةِ كاساتٍ وتطْلِيع "مغْرَجِ"
و"تزْييفِ بَرَّادِ"، وتكْسير سُكَّرٍ ... وأمْرِ مُقيمٍ للمُناوِلِ أنْ يجِي
فإنَّا بنَتْ فينا الخَدَرْنَقُ بُرْهة ... وليس لها عمًّا بنتْ من مُهيِّجِ
سوى الشيخ نجْل الشيْخ آدب إنه ... إذا همَّ بالمَعْروفِ لمْ يتَلجْلَجِ
حيِيٌّ، سخِيُّ النفْس، والكفُّ، أروعٌ ... تقِيٌّ، نقِيُّ العرْضِ، غير مُزَلَّجِ
مُنَوّرُ مِرْآةِ الفُؤادِ، مُوَفَّقٌ ... يُنِيلُ مُرِيدَ الخيْر ما جاءَ يَرْتَجِي
فو الله ما أنْسى كؤوسًا شَهيةً ... يُجَلِّي شذاها الشَّجْوَ عن كلِّ مَنْ يَجِي
حبَاكَ بها مِنْ قبْلُ ذو البيْتِ، إنَّه ... حباكَ بها-معْ غيْرِها- قبْلَ ذَا المَجِي

وفي هذا السياق يقول الشاعر **محمد محمود** بن محمد سيدنا الملقب **"أفافه"**، يمدح **حم بن سيدي بن آدب**، ربما بعد وفاة عمه الشيخ أحمد:

له الفخرُ، في يوْم اللقاءِ، لدى الوَغى ... وفي البْذل-في يوْم العطاءِ- له الفخر
وما وهبت كفَّاه يزْهو به النَّدى ... وما كتبتْ يُمنَاهُ تزْهو به الزُّبْرُ
هُمَامٌ، أبِيٌّ، لا يُضامُ حريمُه ... كريمٌ، وَهُوبٌ لا يُغيِّرُه الدهْرُ

وأخيرا هذا **عبد الله بن سيدي الدوبلالي**، يمدح **شيخه** وصديقه: الشاعر المبدع : **محمد بن الشيخ أحمد بن آدب**، الذي كانت حتى تقارير المستعمر الفرنسي تتحدث عن كرمه الزائد، فيصفه بـ:

غِيَاثِ البَرَى، كهْفِ الأرامِلِ، ذي النَّدى
وإنْسانِ عيْنِ الجُودِ، بحْرِ الجَدَى النَّدِي

"سعيدِ" الوَرى، "مَعْنِ "الـوَرَى، "حَـاتِمِ" الـورَى
كثـيرِ القِـرَى، مفْنِـي الثَّـرَى، باسِـطِ اليَـدِ
كـريمٍ متَـى تُلْمِـمْ بسـاحتِهِ تَجِـدْ
سَـلاقةَ قُـسٍّ، أوْ بَلَاغَـةَ مَعْبَـدِ
وبَسْـطا، وتوْسِـيعًا، عـلى مَـنْ تَنُوبُـهُ
نَوائِـبُ دَهْـرٍ بالمَعِيشَـةِ أنْكَـدِ
وعلـمًا حبَـا ربُّ البَرِيَّـةِ سَـيِّدا
تَـرَوَّى، بـلا كـدٍّ، بِـهِ، وَتَجَهُّـدِ

و- مقاومة زهرة الدنيا- جدل السلوى والتقوى

رغْم عشْق الجَمَال، و طابع الأرْيَحِية، والتبَسُّطِ، الذي يغلبُ على مِزَاجِ هذه الأسْرة، فإنَّ كوَابِحَ "التَّصَوُّفِ"، كانت حاضرةً بِقُوَّةٍ، تمارسُ رِقابَتَها الداخلية والخارجية، على أرْوَاحِ القوْم، ومنْ ثَمَّ على أقْلامِهم، وألْسِنَتِهم؛ **فعبد القادر (آدب)** بن سيدي الأمين، رب البيت، يتضرع إلى الله:

(أنْ يُوفِّقَنِي للخدْمة، وأنْ يجعلَ حاجِزًا بيْني وبيْن المَعْصِيةِ، وأنْ يصحبَني بلُطْفِه الجَمِيل في الدنْيا والآخرة، وأنْ يأخَذنِي عنِّي إليه، ويُرغبَنِي فيما لديْه، وأنْ يُعَرِّفَني محَلَّ القرْب، ويجْعلنِي أقْرَبَ من القرْب)[1].

متمنيا من شيخه -حين يصدره- أنْ يرتقي به إلى مقام تتحطم فيه الحدود بين الثنائية الضدية، حتى يستوي طرفاها في رؤيته، "وإما أن تنظروا إليَّ نظرةً بمُجرَّدِها يُشْفَي قلبي من جميع ما فيه من الأدْواء، ويمْتلئ عِلْما، وحِلْما، وصِدْقا،

[1]- هارون: مصدر سابق، ص 98.

وإخْلاصا، وتقْوى؛ فيكون عنده الذمُّ، والمدْحُ، والحُبُّ، والبُغْضُ والعطاءُ، والمَنْعُ، والضرُّ، والنفْعُ، على حَدٍّ السواء"[1].

فقد مرَّتْ بنا نُصوصٌ وفُصُوصٌ من **أدَبِيَّاتِ أهْلِ "أدَبَّ"** تُؤكِّدُ أصَالَةَ هذا المَنْزَعِ في كيْنُونَتِهم، بدْءا من قصيدةِ **آدب** "كبيرهم الذي علَّمَهُم" كيْف تُؤَدَّبُ الأرْواحُ الجامِحةُ، وتُرَوَّضُ المَشاعِر الطافحة...حين خاطبَ ذاته:

أَلمْ يَـــانِ أنْ تَسْلُـــــو.. ولِلـــنَّفْسِ -بَعْـــدَما
طَغَـــتْ جَهْـــدَها، واسْـــتَخْدَمَتْكَ- تَـــرُوضُ؟!
فَبَـــادِرْ.. وَلا تَشْـــغَلْكَ "سَـــوْفَ" و"عَلَّـــمَا
وَلا يُلْهِـــكَ الطَّـــرْفُ.. الكَحِيـــلُ.. الغَضِـــيضُ!

وعلى هذا الوترِ الحسَّاسِ ذاتِه، عزَفَ وَرِيثُه "**سِيدَيَّ**"، مُدَنْدِنًا علَى إيقاعِه لنفْسِه، ولأخِيه **الشيخ أحمد**:

فرُضْهَا، وذُدْها -عنْ هَوَاها- وزَكِّها ولا تُعْطِها نَيْلًا.. تَنَـلْ مَـا بِـه تُعْنَـى
ومَا حَـازَ قَصْـبَ السَّـبْقِ الَّا مُشَـمِّرٌ قد آثَرَ مَا يَبْقَـى عَـلَى كُـلِّ مَـا يَفْنَـى

وهناك عِدَّةُ فُصُوصٍ منْ نَثْرِيَاتِه، تَدْرجُ علَى المَسَارِ ذاتِه. أمَّا **الشيخ أحمد**، فيكتبُ إلَى مُرِيدِه السابق:

«**وإنَّه، بحمْدِ الله إليْكَ**، الذي لا إله إلا هو، **والوَصِية لنفْسي ولكَ بتقْوَى الله** العظيم، و**عدَمِ الرُّكُونِ إلى الدنْيا** والميْلِ إليْها، وتَوَقِّي حَبَائِلها التي تصْطادُ بها مَنْ مَرَّ عليْها، إذ هِي أسْحَرُ منْ "**هَارُوت**" و "**ماروت**"، وليس لصاحِبها المُقْبِلِ عليْها إلا أنْ يَكونَ لا يَمُوت، واسْتعِذْ منْ شرِّها بالله ربِّكَ، ومَا وَجَدْتَ منْها فاجْعَلْهُ بِيَدَكَ، وأخْرِجْهُ مِنْ قلْبِكَ...».

[1] – هارون: مصدر سابق، ص 98.

والحقيقة أنَّ **الشيخ أحمد** -بحِسِّ الشاعرِ العاشق للجَمَال- **هَلَّلَ لِبَنَاءِ "قصْر البركة" إحْدَى عاصِمَتَيْ قبيلتِهِ في تكانت**، مأْخوذا بسحْرِ روْعَتِه، مُعْلِنا بشعْرِيتِه شرْعِيةَ إعَادَةِ تأسِيسِهِ، بقوْله:

أَبَانِيَ "قَصْرِ البَرْكَة".. شَيِّدْه.. وابْنِهِ وَبَلِّغْ تَحَايَانَا.. علَى القصْـرِ.. وابْنِـهِ
فَذَا العَـالَـمُ العُلْوِيُّ.. رَاضٍ بِنَـاءَهُ وذَا العَـالَمُ.. السُّفْلِيُّ.. جَنَّـةُ عَـدْنِهِ

وكما **اسْتَبْسَلَ** هو -معَ أَخَوَيْهِ: **سِيدِيَّ**، و**محمد لحْوار**، وخِيرَةِ **فرْسانِ "أوْلاد بوسيف** (فَصِيلَتِه التِي تُؤْوِيهِ)- **دفاعا عن هذا الوادي** المُبارَك- فقدْ رَأى **الشيخ أحمد** أنَّ منْ واجِبِه **المُسَاهَمَةَ فِي تعْمِير "قصْر البَركة"**، **فبَنَى** هناك **دارًا كبيرةً**، مَدْخَلُها قوْس، تستطيعُ الجِمَالُ المُحَمَّلَةُ بالمِيرَةِ، وهَوَادِج الظعائن، أنْ تدْخلَ منه، ربما يكون هو القوْس الموْجودة صورةٌ منه ضمْنَ صور أطلال المدينة/ القصر.

لكنّه سرْعانَ ما كتبَ - فِي مَقام **"النفْس اللّوَّامَة"**، التي قلَّما تطلِقُ العِنَانَ لأفْراد هذه الأسْرة، مُقاوِمًا زَخارِفَ زهْرةِ الدُّنيا:

قُلْ للَّذِي قدْ بَـنَى مَـا ليْسَ يَعْمُـرُهُ وَفَضْلُ خَـالِقِهِ -فِي الدَّهْرِ- يَغْمُرُهُ
والمَـاءُ جَـارٍ-حَوَالَيْـهِ- يَهِـفُّ، ومـا فِي الأرْضِ مِنْ ثَمَرٍ هَـا هِـيَ تُثْمِـرُهُ
وصَـارَ فِي فـرَحٍ مِنْـهُ، وفِي تَـرَحٍ وعُمْقُ بَحْرِ المَنَـايَا سَوْفَ يَعْبُرُهُ
لا تَغْـتَرِرْ، بَمَنَامَـاتٍ، مُزَخْرَفَـةٍ كَـانَ المَنَـامُ، بِمَـنْ فِيـهِ يُـزَوِّرُهُ
إنِّي رَأيْـتُ قُـرًى كَـانَتْ مُحَصَّـنَةً دَهْـرًا، مُنَعَّمَـةً، والخُلْـدَ تُضْمِـرُهُ
هَذِي مَعَاهِـدُهَا، صَرْعَـى أمَاجِـدُها أمْسَتْ مُكَسَّـرَةً، لا كَـسْرَ تَجْبُـرُهُ
مِنْ بعْدِما قدْ بَنَـوْا، بُنْيَـانَهُمْ وحَـوَوْا مُلْكًـا عَظِـيمًا فَنَـوْا، والـوَعْظُ أكْـبَرُهُ
مَا قدْ ذَكَرْتُ لكُمْ-قَوْمِيَّ- فاعْتَبِرُوا وَلْيَعْتَـبِرْ مَـنْ بَنَـى مَـا رَاقَ مَنْظَـرُهُ.

ز- مُقاوَمَة الدَّجَل: دفاع الابتداع

هنا نلمح موقف **عبد القادر (آدب)** بن سيد الأمين، خلال ديباجة رسالته **إلى** شيخه **الشيخ سيديَّ**، حين يقول:

(**هذا**، وإنَّه **إلى الغَوْث الكامل**، وبحْرِ العلم والحكمة الشامل، **مَنْ شيَّدَ بناءَ الدين** بعْدَ هَدِّ أيْدي **البِدَعِ لِبنَائِه**، وأضاءَ **شُموسَ العِلْم** بعْدَ انطباق **ظُلمات الجهْل** على ضيائه)[1].

لقد كان موْقفُ **"سيدِيَّ ولد آدبَّ"** صارمًا، تُجَاهَ **دَجَاجِلَةِ عصْرِه**، سواء ممن تسلَّلُوا إلى هذا المَجَال، من **الفُقَهَاءِ والصُّوفِيِّينَ** معًا، حيث **نحَتَ لهُمَا اسمين** من اختصاصهما، يوحيان في بنيتهما الصرفية بالتكلف والدعوى، فهؤلاء **"مُتَفَقِّهَة"**، وهؤلاء **"مُتَصَوِّفَة"**، فكلاهما - في نظره- **"مُتَفَعِّلٌ"**، وليس مُنْفعلا، بمجال معارفه، وضمن ذلك يكمن الفرق، بين الحق، والباطل، هنا، وهناك، وهو لا ينخدع بأي من الصنفيْن، ولا يوقِّرُ أيا منهما، ولا يريد لشقيقه: **محمد لحْوار**-ولا لغيره- أن ينخدع، **بثياب الضأن**، فوق **قلوب الذئاب**، حين يقتبس لهم هذا الوصف القديم، قائلا:

«وإنما جلبتُ لك ما جلبتُ في **مُتَفَقِّهَة** الزمن، دون **مُتَصَوِّفَتِه**، حرْصا على مُطابَقَة مَكْتُوبك ومُوَافقَتِه، مع أنّي أفْرَدْتُ فيهمْ تأليفا دعوته: **"فتح الجليل في الرد على الدجاجيل"**؛ فليطالعه من أراد الفرْق بين **أرْباب الدعوى، ومشايخ الحق** أهل التقوى.

وقد جمَحَ بنا جوادُ الفِكْر في هذا الميدان، حرصا على بيان شُبَهِ أهْل الزمان؛ لئلا يغتر بشعْوَذَتِهم الجاهل، ويتيه في غرور بهْرَجَتِهم الغافل، إذ لا ينال التابع إلا حظ المتبوع، ولا يتصور من هؤلاء منتفع ولا منفوع، كيف وهم المنعوتون -هم وأتباعهم- بقوله صلى الله عليه وسلم: **"يخرج** في آخر الزمان **رجالٌ يختلون الدنْيا**

[1] - هارون: مصدر سابق، ص 96.

بالدين، يلبَسونَ **جلودَ الضأن** من اللين، **ألْسِنَتُهمْ** أحْلى من **العسَل**، و**قُلُوبُهم** أمَرُّ من **الحنْظل**».

وتأسيسا على هذا تَصَدَّى لكل **"أرْبابِ الدَّعْوَى"**، في زمنه، فكتب قصيدة في أحد مُدَّعِي **"المهْدوية"**؛ فقال من الطويل:

لقد أكْحَلَ الأجْفـانَ، مِنِّيَ، بالسُّـهْدِ ... وَهَيَّجَ أحْـــزانِي، وأعْـدَمَنِي بـرْدِي
وتيَّمَ قـــلْبي، عِنْـدمَا شـــاعَ هوْلُـه ... ضَلَالُ مُضِـلٍّ، يَدَّعِـــي أنَّـهُ المَهْـدِي
يُزَخْـرِفُ، زُورًا، مـنْ أبَاطيـلِ قَوْلِـه ... يَغُرُّ بِه سُـفْلَ الحَمَاقَـى، ذَوِي الجَحْـدِ
ويُظْهِرُ خيْرًا للـوَرَى، وهْـوَ مُضْـمِرٌ ... شُرُورًا، عِظَامًـا، والإلـهُ لهَـا مُبْـدِي
فيا أيُّها النَّاسُ، انْظُـرُوا، قـدْ دُهِيـتُمُ ... بِداهِيةٍ، عُظْمَى، بَوَائِقُـــها، تُبْـدِي
أتَاكمْ، مُضِلٌّ، بالغِـــوَايَةِ، غَـالَكمْ ... إذَا لمْ تَـــرُدُّوا بَغْيَـه، أشْـــنَعَ الـــرَّدِّ
ذلِـــيلٌ، قلِـــيلٌ، أشْعَلَ النَّـــارَ، فِتْنَـةً ... فيَالَكِ، مِنْ نَـارٍ، وُقِدْتِ، بِـــلا زَنْـدِ
يقولُ: أنَا المَهْـدِيُّ، جَهْـلًا، بوصْـفِه ... فهَـــلَّا نظَـــرَتْمْ فِي "صَـــوَارِمَةِ
لغوْثِ الوَرَى مُبْدِي الحَقائِقِ سَـيِّدِي ... المَهْـــــــــــــــــــــدِي"[1]

[1] – يحيل على كتاب للشيخ سيد محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي.

تاسعـــا

الخاتـمـة

إن هذه العجالة مُجَرَّدُ ترتيب لبقايا جذاذاتٍ متآكلة من المخطوطات، واستحضار لروايات محلية، بقيت بعضُ ظِلالها عالقة بالذاكرة، مع أنها قد تجْنَح للأسْطَرة التأريخية أحيانا، وللمنْزَع المَناقبي، وللسرديات الكراماتية أطوارا، وللقصص الملحمي القبلي، في حروب **"الفِجَار"** بين الأهالي بـ **"بلاد السيبة"** تارات، مما أرغمني -في بعض الأوقات- على أنْ أتكلم بلغة ليست لغتي، وأقدم رؤية لا تمثل **"تأويل رؤياي"**، ولا **"بصمة روحي"**[1].

ورغـم ذلـك حاولـت تنسـيق ذلـك الشـتات وفـق أطروحـة **"المقاومـة الأخلاقية"**، متلّمَّسَة عبر **"أدبيات أهـل آدب"**، مصـحوبة بـبعض اسـتنتاجات شخصية، لا تنبثقُ من أيِّ دراساتٍ سابقة علْمية تحيل عليْها.

وأظن أنه قد استبان من خلال هذه العاجلة أن هناك علاقة بين الاسم والمسمى، بين اسم **أهل آدب، والأدب**، ببعديه: **أدب** الدرس، و**أدب** النفس، إضافة إلى ربط الصلة أيضا بـالكرم في **"مآدب"** الأشباح، والأرواح؛ حيث حاولنا تأصيل البعد الروحي التربوي، الذي تكتنزه **"المقاومة الأخلاقية"**، في مفهومي: **التكنْتي**، و**التفَتِّي**، وفي تموقع أهل هذه **"المقاومة الأخلاقية"**، في منطقة

[1]- أدي ولد آدب: **"تأويل رؤياي- أطروحات صغيرة في الأدب والثقافة"**، ط 1، 2019، مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، مراكش المغرب. وديوان: **"بصمة روحي"**، ط1، 2018، مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، مراكش المغرب.

جذب، تعتبر **"مجمع البحرين"**، و**ملتقى** روافد إمدادات **الحضرتين**؛ حضرة **أهل الشيخ سيدي المختار** الكنتي، في الشرق، وحضرة **أهل الشيخ سيدي**، في الغرب، مُتَلَمِّسِينَ تجليات هاتيك **"المقاومة الأخلاقية"**، عبر مجاهدة **النفس**، و**الشيطان**، و**الأهواء**، ومغريات **زهرة الحياة الدنيا**، دار الغرور، وعبر محاربة **الجهل**، و**الجبن** و**البخل**، نقلا للمعركة، وميدانها، وأسلحتها، من البعد الخارجي الموضوعي، إلى البعد الداخلي الذاتي؛ **تخلية** من الرذائل، و**تحلية** بالفضائل، **كل ذلك** متناولا من خلال **البعد الأدبي**، في مظهره الأسلوبي الإبداعي، استنطاقا **لنصوص** شعر القوم، و**فصوص** نثرهم الراقي، لتشهد **القصيدة والرسالة** معا، وحتى **الفتوى**، و**الحكم القضائي**... **"مستفيضة"**، أنه "كان هناك عائلة تسمى **أهل آدب**، لا ينبغي أن **تختزل في الشعر** فقط، ولا في **المحكيات** الشعبية المناقبية الكراماتية، ولا في **الصورة النمطية** المأثورة عن كرمهم، بل **هناك** بقايا **نصوص** شعرية، وفصوص نثرية، **تقدم سردية أوثق**، وأعمق، **شاهدة** أن هناك **شعراء**، غير المبدع الأشهر: **محمد بن آدب**، وهناك، **نُثَرَاء**، وأنه بقدر ما كان هناك **فتيان** يعشقون **الجمال** ويتغنون به، ويبدعون في تصوير **الفتوة**، و**الفروسية**، فـ "إنَّ فِي القَوْمِ أَشْيَاخًا يُرَبُّونا"[1]، كما قال الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي.

وخلاصة الخلاصة أنني **أزعم** أن من **مر** بهذه **العجالة**، **سيقول**- كما قال متأخرو **"يأجوج ومأجوج"** حين مَرُّوا بالبحر، وقد شربه متقدموهم-: **"كان الماء هنا"**.

وحين **يصل** إلى **نقطة النهاية** هذه: **سيتمتم** أيضا:

أخطأ من راهن على أن القوم ابتلعتهم دوامة النسيان، كلا، ماتت شخوصهم، وبقيت نصوصهم.

---

[1]- اقتباس لشطر بيت له؛ تمامه، حين يخاطب العشاق الواقفين بالأطلال:

وإن صدقتمْ برين الذنب أفئدة فإن في القوم أشياخا يربونا

وأنا أقول أخيرا: ما لم يدركني الموت – أطال الله بقائي– سأتدارك المزيد..

من كان أباكَ كن ابنه...

من لم يلِدْ آباءَه وأجْدَادَه.. كَمَا ولدُوه.. ويبعثهم من مَراقِدِهْم في جنَّات الخلد.. إلى معارج الخلود الدنيوي، فهو لم يُولَدْ أصْلا..

"إن الحروفَ "تعِيش" حين تقالُ"[1].

[1]– تحريف مقصود لشعر نزار قباني عن مواضعه.

المؤلف في سطور

أدي ولد آدب -شاعر- وباحث موريتاني (دكتوراه في اللغة العربية والأدب).
له حوالي عشر مجموعات شعرية، نشرت منها وزارة الثقافة الجزائرية 2009م، ديواني:

1- **رحلة بين الحاء والباء.**

2- **تأبط أوراقا.**

3- **بصمة روحي**، مؤسسة آفاق، مراكش، ط1، 2018.

ونشرت له بحوث ومقالات، كما نشرت له كتب:

1-"**الإيقاع في المقامات اللزومية للسرقسطي**"، نشرته دائرة الثقافة والإعلام في الشارقة، 2006م.

2-"**المفاضلات في الأدب الأندلسي/ الذهنية والأنساق**"، نشر 2015 من قبل المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات بالدوحة.

3- **تأويل رؤياي: أطروحات صغيرة في الأدب والثقافة**، مؤسسة آفاق، مراكش، ط 1، 2019م، (يضم حوالي 150 مقالا).

وأخيرا سلسلة: "**أدبيات أهل آدب**":

1- **أهل آدب: سلالة الشعر وبيت القصيد**، مؤسسة آفاق، مراكش، ط1، 2020.

2- **المقاومة الأخلاقية في أدبيات أهل آدب**، مؤسسة آفاق، مراكش، ط1، 2020.

3- **سيدي ولد آدب: رمز الفتى الكنتي، فارس المدفع والقلم**، مؤسسة آفاق، مراكش، ط1، 2020.

4- **الشيخ أحمد بن آدب: شيخ المشايخ وقطب الشعراء**، مؤسسة آفاق، مراكش، ط1، 2020.

5- **خديجة "دَيَّه" بنت سيدي بن آدب: خنساء شنقيط**، مؤسسة آفاق، مراكش، ط 1، 2020.

وفي الأفق سلاسل أخرى، إن